جامعة محمد خيضر بسكرة
كلية العلوم الانسانية والإجتماعية
قسم العلوم الإجتماعية

مذكرة ماستر

ميدان العلوم الإجتماعية
شعبة الفلسفة
تخصص فلسفة عامة

رقم: أدخل رقم تسلسل المذكرة

إعداد الطالبة:

سهيلة بشير

يوم:01/07/2019

إشكالية التسامح في الفكر السياسي عند جون لوك

لجنة المناقشة:

محمد بن جلطي	أ. د.	جامعة محمد خيضر بسكرة	رئيسا
جمال الدين بن سليمان	أ. د.	جامعة محمد خيضر بسكرة	مشرفا ومقررا
حمدي لكحل	أ. د.	جامعةمحمدخيضربسكرة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية:2018 - 2019

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرّحمن الرّحيم

{ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ }

صدق الله العظيم

[المجادلة : 11]

الشّكر و العرفان...

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصّالحات؛ والصّلاة والسّلام على محمّدٍ سيّد المخلوقات

يقول الله تعالى في محكم التّنزيل: بعد بسم الله الرّحمن الرّحيم؛ «...لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...»

فالحمد والشّكر والثّناء لخالقي الّذي أمدّني بالقوّة والعزيمة والصّبر لإتمام هذا البحث...

كما يسعني في هذا المقام بأن أتقدّ بخالص التّقدير والإحترام ؛ وجزيل الشّكر و جميل العرفان؛ إل أستاذي الفاضل "جمال الدّين بن سليمان " الّذي تفضّل عليّ بقبول الإشراف على هذه الرّسالة؛ والّذي سعى جاهدًا لتقديم المساعدة والمعلومات ؛ ولم يبخل عليّ بنصائحه وإرشاداته القيّمة...

ولا أنسى باقي الأساتذة الذين ساهموا في إثراء زادي المعرفي... فشكرا يا من غمرتموني بفضلكم العظيم

والشّكر الأعظم لوالديا ؛ الذان تعبا كثيرًا من أجل هذه اللّحظة؛ من أجل رؤيتي في هذا الموقف ... فحفظكم ورعاكم وبارك الله في أعماركم يا جنتي في هذا العالم.

والشكر موصول لكلّ من ساعدني ولو بحرف في إنجاز هذا العمل.

إهداء

يالمعتق بعبق الزمن الأبدي وعطر الطفولة

المرقوم على جبيني لوحات عزّ وكبرياء ورجولة.

المنقوش على دقات القلب ملاذا..للأنات والآهات

إلى من رامه العلا في علاه

ياكلّ كلي..ياسيدي؛ ياأبي

إلى عيون قرمزية لثمت صدر المدى.. وأحبتني

تزينت سحرا للدجى بثوب ولادتي.. سكنًا

ياقمر عيني ،سوسنتي وسلطانتي

...ياسيدتي ؛ياأمي ... أهديكما هذا العمل الذي لو لا كما لما تم.

كما أهدي هذا العمل المتواضع إلى عائلتي الكريمة ورفقاء دربي حسينة ورميساء.وأخصّ بالذكر أخواتي الّاتي لم تلدهنّ أمي وداد، رندة ولويزة

الفهرس

فهرس الموضوعات:

المحتويات: **رقم الصّفحة**

مقدّمة...أ – ب– ج

الفصل الأوّل: فكرة التّسامح والمرجعيّة الفكريّة لجون لوك.

المبحث الأوّل: مفهوم التّسامح.. 14

1) التّعريف اللّغوي والاِصطلاحي للتّسامح.. 14

أ– لغة: 14

ب– اِصطلاحًا.. 15

2) تاريخيّة مصطلح التّسامح.. 17

أ– التّسامح في المجتمعات البدائيّة.. 17

ب– التسامح في الحضارات الشرقيّة القديمة.. 17

ج– التّسامح في الحضارات الغربيّة القديمة.. 20

د– التّسامح في الحضارة الإسلاميّة.. 22

هـ– التّسامح في العصر الوسيط.. 22

و– التّسامح في العصر الحديث.. 25

المبحث الثاني : منطلقات فكر جون لوك.. 27

1) المرجعيّة العلميّة والفلسفيّة.. 27

2) المرجعيّة السّياسيّة.. 30

الفصل الثاني : ظروف تبلور فلسفة التّسامح عند جون لوك وعلاقتها بفكره السّياسيّ.

المبحث الأوّل : الظّروف المساهمة في نشأة فكرة التّسامح عند جون لوك..... 38

1) الظّروف الإجتماعيّة..... 38

أ- محيطه الأسريّ..... 38

ب- الخلفيّة الدّينيّة..... 39

ج- المرحلة الجامعيّة..... 39

2) الظّروف السّياسيّة..... 41

المبحث الثّاني: علاقة التّسامح بفكر جون لوك السّياسيّ..... 50

1) فكرة التّسامح والحالة الطّبيعيّة..... 50

أ- الحقّ في الحياة..... 51

ب- الحقّ في المساواة..... 52

ج- الحقّ في الحرّيّة..... 54

2) التّسامح والمجتمع المدني..... 56

أ- السّلطة الدّينيّة..... 58

ب- السّلطة المدنيّة..... 62

الفصل الثالث : أثر فكر لوك السّياسيّ في النّظريّة والممارسة.

المبحث الأوّل: أثره على مستوى التّنظير السّياسي..... 71

1) أثر لوك في فكر فولتير السّياسيّ..... 71

2) أثر لوك في فكر توماس جيفرسون السّياسيّ..... 75

المبحث الثاني: أثره على مستوى الممارسة السّياسيّة..... 77

1) الثّورة الأمريكيّة.. 78

2) الثّورة الفرنسيّة.. 81

خاتمة.. 86

قائمة المصادر والمراجع.. 92

مقدمة

مقدّمة:

تعدُّ الصّراعات المذهبيّة خاصّيّة لتلك المجتمعات التي يسودها التّعدّد القوميّ والتّنوّع الدّينيّ والعرقيّ والثّقافيّ، وقد يكون للتّنشئة دورٌ بالغ الأهميّة في التّخفيف من ذلك الصّراع المذهبي أو الطائفيّ، لكن ليس ضّروريًّا أن تُبلغ تلك التنشئة ذلك الهدف من خلال تهوين قيّم الطّوائف والتّوجّهات المسببة للصّراع أو إزالتها، ولكن يمكننا على الأقل أن نجعل النّاس أكثر تعايشًا وتقبّلًا لِإختلافات الآخر، دينيًّا كان ذلك أو عرقيًّا أو جنسيًّا أو فكريًّا، من خلال تدعيم وترسيخ قيم وفضائل "كالتّسامح"، الذي يعتبر من الفضائل العظيمة الّتي ساهمت في بناء مجتمعات كانت فيها العلاقة جدُّ وطيدةٍ ومتماسكةٍ بين أفرادها، والذي يحاكي ذلك التّساهل واللّين وتلك الإنسانيّة التّي فُطِر عليها البشر. ويحتلّ التّسامح أهميّة كبيرة، بل هو أبرز القيم التي ترتكز عليها النُّظم الإجتماعيّة والسّياسيّة، حيث لا غنى عنه في العلاقات السّلميّة في أيّ مجتمعٍ، بل إنّ البعض يرى فيه المخرج من جميع الصّراعات والأزمات التي تكابدها المجتمعات البشريّة.

وهذا ما نجده عند الفيلسوف الإنجليزي "جون لوك" John Locke (1632م-1704م)، الذي إتّخذ من التّسامح قاعدة لمشروعه السّياسيّ، فقد إعتنى وركّز عليه جاعلًا منه حلّاً لأخطر معضلة واجهت المجتمعات الأوروبيّة، إذ شهدت حروبًا داميّةً وعنيفةً، وُصفت بالحروب الدّينيّة، كحرب الثلاثين عامًا الّتي عاصرها "لوك" والّتي حصلت بين الكاثوليك والبروتستانت، ولقد دعا جون لوك إلى التّسامح كردّ فعل على التّعصب الدّيني الذي عانت منه أوروبا وعانى منه هو شخصيًّا. وجاءت تحليلات لوك في مؤلّفه "رسالة في التّسامح"، بغية القضاء على بنية التفكير الأحادي المطلق وروح التّعصب الدّينيّ، وإقامة مجتمع ذي عقليّة منفتحة على الآخر تتوافق مع قيم التّسامح.

وعلى هذا الأساس يمكن صياغة الإشكاليّة المحوريّة لهذا البحث في التساؤل التّالي:

- كيف عالج لوك إشكاليّة التّسامح في فكره السّياسيّ؟ وكيف ساهمت أفكاره عن التّسامح في بناء الفكر السّياسيّ لديه ؟

ثمّ أسئلة فرعيّة تمثّلت في:

* ما هو مفهوم التسامح ؟

* كيف تبلورت هاته الفكرة لدى جون لوك؟

* ما هي العلاقة بينها وبين تنظيره السّياسيّ؟

* إلى أيّ مدى يمكننا القول بنجاح فكر لوك ومشروعه السّياسيّ الإصلاحيّ القائم على التّسامح ؟

وسنحاول الإجابة على هذه التّساؤلات خلال فصول هذا العمل بِاعتمادنا على المنهج التّاريخي، فقد تتبّعنا إرهاصات فكرة التّسامح في المجتمع البدائي، وكذا في الحضارات القديمة الشّرقيّة والغربيّة، ثمّ الحضارة الإسلاميّة وكذا في العصور الوسطى وصولاً إلى العصر الحديث، وكذا في تناولنا للظّروف السّياسيّة الّتي مرّت بها إنجلترا، والمنهج التحليلي حيث قمنا بتحليل مضامين نصوص جون لوك والمراجع الّتي اِهتمّت بهاته المسألة.

أمّا عن أهمّ الأسباب والدّوافع الّتي أدّت بنا إلى اِختيار هذا الموضوع: فيرجع أوّلًا إلى العامل الذّاتي، وهو الرّغبة أو الميل في دراسة مثل هذه المواضيع التي تتعلق بالمسائل السّياسيّة وكذا بواقعنا المعاش. أمّا فيما يخصّ الجانب المعرفي، فنجد أنّ هذا الفكر الفلسفي يهتم بدراسة حقوق الإنسان في هذا العالم، زِد على ذلك أنّها فلسفة أحدثت ثورة غيّرت مجرى التّاريخ آنذاك، ومهّدت الطّريق للبشريّة لاحقًا بعد نجاحها، ومن بين الدّوافع كذلك، محاولة مناقشة إشكالية حسّاسة جدًّا غابت عن حاضرنا، فكانت السّبب المباشر في الحروب والصّراعات والعنف واللّاسلم، ألا وهي إشكاليّة التّسامح. ولقد اِتّخذنا من جون لوك نموذجًا بِاعتباره فيلسوف التّسامح الأوّل في العصر الحديث، ونظرًا لأنّ معظم البحوث والدّراسات السّابقة قد اِنصبّ اِهتمامها حول الفكر السّياسيّ عمومًا لدى جون لوك، فأردنا أن ندرس فكره السّياسيّ وعلاقته بفكرة التّسامح عنده.

و لقد سعينا في بحثنا هذا إلى تحقيق جملة من الأهداف لعلّ أبرزها:

تبيان مفهوم وتاريخيّة التّسامح، والإحاطة بالظّروف التي إستوحى منها لوك فكرة التّسامح. كذلك إظهار العلاقة القائمة بين فكره السّياسيّ وفلسفة التّسامح لديه، وكذا محاولة معرفة مدى تأثير فكر لوك الموسوم بالتّسامح على التّنظير الفلسفيّ والممارسة السّياسيّة.

أمّا بالنّسبة لأهميّة هذه الدّراسة، فإنّها تتجلى في إستظهار قيم التّسامح الّتي تناولها جون لوك، والتي تعدّ معيارًا لإنسانيّة الإنسان ولتحضّره إنطلاقًا من فسح المجال للآخر الذي يختلف عنّا، لإبداء رأيه وممارسة عقائده وعاداته وحريّة إختياره، واضعًا بذلك حدًّا للدوغمائيّة والتعصب.

وفيما يخصّ الصّعوبات التي واجهتنا خلال العمل على هذا البحث، فيمكن إجمالها في قلّة الدّراسات السابقة حول هذا الموضوع، وكذا صعوبة إستنتاج مفهوم التّسامح في المجتمعات القديمة والحضارات التي عرفها الإنسان، سواء في الشّرق أوفي الغرب، وهذا راجع لعدم تناوله حتّى بدايات فلسفة العصر الحديث، وعلى الرّغم من وجود هذه الصّعوبات، فإنّها لم تمنعنا من السّير في بحثنا، بل دفعت بنا إلى الإجتهاد وزادت من همّتنا، وعزيمتنا في مواصلة الدّراسة والتّعمّق في الموضوع ما أمكننا ذلك.

و لتحليل هذا الموضوع وعرضه بشكل أفضل، قمنا بتقسيم العمل إلى:

مقدّمة : وفيها تحدّثنا عن التّسامح بإعتباره قيمة أخلاقيّة وفضيلة عظيمة مساهمة في التربيّة الّتي تدعو إلى التعايش والسّلام، مشيرين إلى مشروع جون لوك السّياسيّ ودور التّسامح في حلّ وفضّ النّزاعات والصّراعات الدّينيّة الّتي شهدتها القارّة الأوروبيّة.

الفصل الأوّل: وعالجنا فيه "فكرة التّسامح والمرجعيّة الفكريّة لجون لوك"، وفيه تمّ تقديم تعريفات لغويّة وإصطلاحيّة لمفردة التّسامح، بالإضافة إلى تتبّع تاريخيّة مصطلح التّسامح منذ المجتمعات البدائيّة، كما تطرّقنا إلى المنطلقات العلميّة والفلسفيّة وكذا السّياسيّة لجون لوك.

وأتى **الفصل الثاني:** ليعرض "ظروف تبلور فلسفة التّسامح عند جون لوك وعلاقتها بفكره السّياسيّ"، وفيه كان حديثنا عن الظّروف الإجتماعيّة والسّياسيّة الّتي مهّدت لفكرة التّسامح عند

جون لوك، وكذا دراسة العلاقة بينها وبين الفكر السّياسيّ لديه، من خلال التّطرق إلى حالة السّلم والحرّيّة في الحالة الطّبيعيّة، ثمّ مبدأ التسامح الدّينيّ داخل المجتمع الكنسيّ والسّلطة الحاكمة.

وفي الأخير كان **الفصل الثالث:** بعنوان "أثر فكر لوك السّياسيّ في النّظريّة والممارسة"، حيث أردنا فيه أن نلقي الضوء على أولئك الّذين تأثّروا بفكر لوك السّياسيّ الموسوم بالتّسامح على مستوى كل من التّنظير السّياسي ثمّ الممارسة السّياسيّة، محاولين بذلك التّدليل على مدى واقعيّة فكر لوك السّياسيّ لاسيّما التّسامح، وأهميّتها وضرورتها في المجتمعات القابلة لتطبيق مشروعه السّياسيّ بعيدًا عن الطّوباويّة.

الفصل الأوّل : التّسامح والمرجعيّة الفكريّة "لجون لوك".

المبحث الأول: مفهوم التّسامح

1) التّعريف اللّغوي والإِصطلاحي للتّسامح.

2) تاريخيّة مصطلح التّسامح.

المبحث الثاني: منطلقات فكر جون لوك.

1) المرجعيّة العلميّة.

2) المرجعيّة السّياسيّة.

يعدّ مصطلح "الّتسامح" Tolérance، من بين المصطلحات التي سجّلت حضورها في السّاحة الفكريّة، وكذا في الخطابات السياسيّة والدّينيّة والأخلاقيّة. وقد اِختلف وتباين مفهوم وتداول مفردة التّسامح بِاختلاف وتباين الأزمِنَة والمجتمعات الإنسانيّة عبر الحضارات التي شهدتها البشريّة في تاريخها.

حيث يذهب الكثير من المفكرين إلى أنّ مفهوم التّسامح، قد ظهر بشكل جليّ وملفت للاِنتباه مع الإصلاحات التي جاءت نتيجةً للصّراعات الدّينيّة بالقارّة الأوروبيّة في العصر الحديث، هذا الأخير كان بمثابة المهد الذي اِحتضن العديد من الفلاسفة الذين ساهموا في هاته الإصلاحات، من أمثال "جون لوك"، الذي تَعرّض لفكرة "التّسامح" في فكره ومشروعه السّياسيّ الإصلاحيّ.

وهو ما يدعونا إلى الوقوف عند هذا الفيلسوف من أجل دراسة خلفيته العلميّة الفلسفيّة والسّياسيّة. وقبل هذا علينا أولًا الإحاطة بالمفهوم اللّغويّ والاِصطلاحيّ "للتّسامح"، وكذا تتبع تاريخيّة هذا المصطلح لبناء السّياق اللّغوي والتّاريخيّ، الذي يمكن أن يساعدنا على فهم فلسفة لوك فيما بعد.

المبحث الأول : مفهوم التّسامح

1) تعريف التّسامح:

أ- لغةً:

ورد التّسامح في "مختار الصّحاح": «س م ح – (السّمَاحُ) و(السماحةُ) الجود (سَمَحَ) به يَسْمَحُ بالفتح فيهما (سَمَاحًا) و (سَمَاحَةً) أي جاد. و(سَمَحَ) له أي أعطاه. و(سَمُحَ) من باب ظَرُفَ صار (سَمْحًا) بسكون الميم. وقوم (سُمَحَاءٌ) بوزن فقهاء وامرأة (سَمْحَةٌ) بسكون الميم ونسوة (سِمَاحٌ) بالكسر. و(المُسَامَحَةُ) المُسَاهَلَةُ و(تَسَامَحُوا) تساهلوا.»[1]

و يعرّفه أيضًا "إبن منظور": «سمح: السَّماحُ والسَّمَاحة: الجود...الإسماح: لغة: في السَّماح، يقال سَمَحَ وأَسْمَحَ إذا جاد وأعطى عن كرمٍ وسخاءٍ... والمسامحة: المساهلة. وتسامحوا: تساهلوا. وفي الحديث المشهور: السّماحُ رباحٌ أي المساهلة في الأشياء تربحُ صاحبها. وسمح وتَسَمَّحَ: فَعَلَ شيئًا فسهّل فيه.»[2]

كما ورد في قاموس "Larousse" الفرنسيّ بأنّ "التّسامح" هو: «إحترام حريّة الآخر، أفكاره، طريقة عيشه.»[3]

وعرفه "الحنفيّ" في معجمه: «التّساهل، تقول تسامح في حقه أي إحتمال إنتقاصه... والسّماحة في السياسة هي اللّين.»[4]

وما يلاحظ هنا في التّعريف اللّغويّ للتّسامحّ، بأنّه قد حُدّد واُقتصر على أنّه قيمة أو خلق الشّخص الصّبور، السّهل، اللّيّن، الحليم، الّذي يتّصف بالجود والكرم ورحابة الصّدر، فهاته الصّفات تجعل منه إنسانًا مسالمًا ومسامحًا.

---

[1] محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، 1986، ص131.
[2] أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقيّ المصريّ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ص489.
[3] Larousse, Dictionnaire De Français, Canada, 2004, Tolerance, p424.
[4] عبد المنعم الحنفي، المعجم الفلسفي، دار إبن زيدون للطّباعة والنّشر والتّوزيع، لبنان، 1992،ص 54.

ب-إصطلاحا:

يقابل مفهوم التّسامح، التّعصب، وقد برز مفهوم التّسامح في نهايات القرن السّادس عشر ميلاديّ كما ورد في موسوعةٍ "لأندريه لالاند": «ولدت كلمة التّسامح في القرن السّادس عشر من الحروب الدينيّة بين الكاثوليك والبروتستانت: فقد إنتهى الأمر بأن تساهل الكاثوليك مع البروتستانت، وبالعكس. ثم صار التّسامح يرتجى جميع الدّيانات وكل المعتقدات. وفي آخر المطاف، في القرن التّاسع، شمل التّسامح الفكر الحرّ.»[1]

وفي معنى آخر من "موسوعة لالاند" ذُكر التّسامح على أنّه: «إستعداد عقليّ، أو قاعدة مسلكيّة قوامها ترك حريّة التّعبير عن الرّأيّ لكلّ فرد، حتّى وإن كنّا لا نشاطره رأيه.»[2]

ونجد هذا المفهوم قريبًا جدًّا ممّا ذكره "إبراهيم مذكور" في معجمه الفلسفي، حيث يرى أنّ "التّسامح" هو: «سعة صدر تُفْسِحُ للآخرين أن يعبّروا عن آرائهم ولو لم تكن موضوع تسليمٍ أو قَبولٍ، ولا يحاول صاحبه فرض آرائه الخاصّة على الآخرين.»[3]

ويأتي مصطلح التّسامح في تضادٍّ كليٍّ مع التّعصب، فالتّعصب هو إلغاء للغير، في حين أنّ "التّسامح" عكس ذلك تمامًا كما رأينا في التّعريفات السّابقة، ولقد عرّف "إبراهيم" التّعصب على أنّه: «غلوٌّ في التّعلق بشخصٍ أو فكرةٍ أو مبدأ أو عقيدةٍ، بحيث لا يدع مكانًا للتّسامح.»[4]

أما بالنّسبة "للمعجم الفلسفي" "لمراد وهبة"، فقد إقترن تعريفة للتّسامح برسالة "لوك" في التّسامح، حيث قال: «ألّف جون لوك رسالة في التّسامح باللاتينيّة عام 1685 ضدّ المناخ الطائفيّ الفكريّ المصحوب بالإضطهاد الدينيّ في القرن السّابع عشر. فِكْرتُها المحوريّة تدور على مسألتين إحداهما دفاعٌ عن اللّيبراليّة في السّياسة والدّين والأخرى دفاعٌ عن التّسامح الدّينيّ ومحدوديّة العقل الإنسانيّ الّتي لا تسمح لأحد بفرض عقيدته على الآخرين.»[5]

---

[1] أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، ، م1، ط2، بيروت، 2001، ص1460.
[2] المرجع نفسه،ص1460.
[3] إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميريّة، القاهرة، 1983، ص49.
[4] المرجع نفسه، ص49.
[5] مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، 2007، ص185،186.

ولقد ربط جون لوك* التّسامح بالّدين، ورأى بأنّه المبدأ الحقيقيّ له، يقول لوك في مطلع رسالته : «سيدي الموقّر،

حيث أنّك تشعر بالغبطة لأنّك تتساءل عن أفكاري الخاصة بالتّسامح المتبادل بين المسيحيين المختلفين في مِلَلِهم، فأنا من أجل ذلك أُجيبك بلا تحفظ وهو أنّني أنظر إلى التّسامح على أنّه العلامة المميّزة للكنيسة الحقّة.»[1]

كما تعرّض "جميل صليبا" في معجمه الفلسفيّ إلى مفهوم التّسامح، حيث قال: «والتّسامح عند علماء اللّاهوت هو الصّفح عن مخالفة المرء لتعاليم الدّين، والتّسامح في اِصطلاحات (فولتير)، وغيره من فلاسفة القرن الثامن عشر، هو ما يتصف به الإنسان من ظرف، وأنسٍ وأدبٍ، تمكّنه من معايشة النّاس رغم اِختلاف آرائهم عن آرائه.»[2]

إذن فدائرة التّسامح واسعة جدًّا، فهي تشمل جملة الاِستعدادات الفكريّة والثّقافيّة والنّفسيّة وغيرها، لتقبّل الآخرين باِختلاف عقائدهم وقناعاتهم وثقافاتهم وتوجّهاتهم، والّتي تعدّ جزءًا لا يتجزأ من مقومات هويتهم، لكي نضمن ذلك الودّ والحبّ والسّلام والتّعايش بين بني البشر. «فتاريخ البشريّة يشير إلى أنّ – التّسامح الذي يقف في مواجهة التّعصّب – يعتبر دِعامة أساسيّة من دعائم الفكر الفلسفيّ، لأنّ اِعتماد الشّك في التّفكير الفلسفيّ والإيمان بالنسبيّة في الحقيقة والاِعتراف بأنّ الاِختلاف أمر مشروع، لهو التّسامح بعينه.»[3]

* جون لوك: فيلسوف تجريبيّ إنجليزي، ولد في 29 أغسطس سنة 1632 في رينجتون، تعلم في مدرسة وستمنستر، ثمّ في كلّيّة كنيسة المسيح في أكسفورد. أخذ في دراسة الطّب ومارس التّجريب العلمي. أثناء الإضطرابات السّياسيّة التي وقعت في إنجلترة ما بين عامي 1675و1679 أقام في مونبلييه جنوبي فرنسا وباريس وأقام في أمستردام باِسم مستعار هو Dr.Vanden Lenden حيث توثّقت صداقته بلاهوتيين حرّين، ثمّ عاد إلى إنجلتره سنة 1688، وأمضى سنواته الأخيرة في أوتس Oates في منزل سير فرنسيس وليدي ماشم Masham Ralph Cudworth، وتوّفي في 28 أكتوبر 1704. (أنظر: عبد الرّحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر، ج1، بيروت، 1984، ص373.)

[1] جون لوك، رسالة في التسامح، تر: منى أبو سنّة، المجلس الأعلى للثّقافة، مصر، 1997، ص19.

[2] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللّبنانيّ، ج1، لبنان، 1982، ص271.

[3] مسدوّة وهيبة، خطاب التّسامح في فكر الأنوار، مذكّرة شهادة الماجستير، جامعة السّانية، وهران،2011، ص50.

2) تاريخيّة مصطلح التسامح:

أ- التّسامح في المجتمعات البدائيّة:

لقد تجسّد مفهوم التّسامح في المجتمعات البدائيّة، من خلال تعاملاتهم الإِقتصاديّة آنذاك، فكانت الغاية من إقامة علاقات تجاريّة عند الإنسان البدائيّ جدّ فاضلة، تمثلت في بناء جسور المودّة والتّسامح والتّعايش بين القبائل، «ولعلّ المجتمع البدائيّ بلغ الغاية – أو كاد – في سموّ علاقاته الإِقتصاديّة وتنزّهها عن الأغراض. فهناك في المجتمعات البدائيّة ضوابط أخلاقيّة كريمة تحكم عمليّة التّبادل والمقايضة، بحيث يستبعد الرّبح والمنافسة في الغالب، إمّا لإقامة علاقات وديّة أو لتفادي العلاقات العدائيّة.»[1]

والمقايضة عند البدائيّين، تعدّ دليلًا على الرّغبة في تحقيق العيش الهنيء، بل «هي معاهدات سلام بقدر ما هي تعاملٌ إِقتصادي. إنّها عربون صداقةٍ ودليل على الرّغبة في العيش بسلام.»[2]، إضافةً إلى أنّ المجتمع البدائي، مجتمع لا تحكمه السّياسة، بل ركيزته الأولى والأساسيّة تتمثل في العائلة المكوّنة للعشيرة، «إنّ العلاقات الإِجتماعية القبليّة هي علاقات محبّة وتواد، إنّها علاقات تسودها القرابة. فالمجتمع البدائيّ قبائل تجمعها آصرة القربى. والقرابة علاقة إِجتماعيّة تقوم على التّعاون المشترك واللاعنف.»[3] وهذا التّعبير إنْ دلّ على شيءٍ، إنّما يدلّ على مدى تمسك هؤلاء الأقوام بتلك العلاقة الّتي تعدّ الحبل العاصم للعشيرة أو القبيلة، وكذا تمسّكهم بالسّلم والتّسامح واللاعنف، فأرادوا بذلك بناء مجتمع متحالف قوامه القرابة.

ب- التسامح في الحضارات الشرقيّة القديمة:

إِقترن مصطلح التّسامح في الحضارات الشّرقيّة القديمة بمبحث الأخلاق، الّذي كان موضوع إِهتمام لقدماء المصريين والهنود والصّينيين وغيرها من الحضارات التي عرفها الشرق قديما، حيث إِرتبطت هاته الأخلاق بحياتهم اليوميّة فكانت بذلك أخلاقًا عمليةً بإِمتياز، مستندين في ذلك

[1] محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع في تاريخ الأخلاق، جروس برس، لبنان، 1988، ص74.
[2] المرجع نفسه، ص75.
[3] المرجع نفسه، ص76.

إلى جملة من الوصايا الأخلاقية الّتي صاغها حكمائهم في كتبهم الّتي تعدّ بمثابة دستور منظِّمٍ لحياتهم.

- **الحضارة المصريّة:**

إنّ الدّارس لتاريخ "الحضارة المصريّة" في سنواتها الأخيرة، سيلفت اِنتباهه ذلك التّعدد في الأديان على أرضها من الوثنيّة واليهوديّة والمسيحيّة بمذاهبها المختلفة وغيرها من الأديان، وذلك التّعايش والتّقبل للآخر رغم اِختلاف عقيدته وثقافته وأصوله، فقد «كان التّسامح الدّينيّ ظاهرة عامّة في عقائد الشّرك، وقد حبا المصريّون الآلهة الأجنبيّة بعين- الرّعاية وروح الضّيافة الّتي اِمتدّت إلى أيّ أجانب آخرين يرغبون في الإقامة بقطرهم.»[1]، ممّا «أدى إلى قَبول العبادات الأجنبيّة على أرض مصر.»[2]، فجسّدت بذلك الحضارة المصريّة إحدى مظاهر التّسامح، تَمثَّل في اِحتضانها للدّيانات وتقبّلها لها والتعايش معها رغم الاِختلاف.

- **الحضارة الهنديّة:**

أمّا عن التّسامح الذي كان يسود الحضارة الهنديّة، فكان نتيجة لتطبيق لتعاليم "بوذا" الّذي كان ينبذ العنف، فالتّعصب والعنف بالنّسبة له عدوٌّ للدّين، فكان متسامحًا مع الدّيانات الأخرى التي عرفتها الحضارة الهنديّة، «ويُروى أنّه رأى يومًا أحد مريديه غارقًا في نقاشٍ حادٍّ مع برهمي كان يرمي بوذا بالإلحاد وقلّة الورع... ولما رأى بوذا حماسة تلميذه وحدّته أنكر عليه ذلك وقال: «أيّها الإخوان إن كان هناك من يقدح في شخصي أو في ديني أو في النّظام [البوذي] فليس لكم أن تغضبوا أو تحزنوا أو تحقدوا، لأنّكم بهذا تعرضون أنفسكم لخطر الخسارة الروحيّة أولاً، ثم لا تتمكّنون في سَوْر الغضب من تمحيص أقوال القادح ثانيًا.» ولمّا كان بوذا عدوًّا أيضًا للغضب

[1] ياروسلاف تشارني، الدّيانة المصريّة القديمة، تر: أحمد قدري، دار الشّروق، القاهرة، 1996، ص173.
[2] محمد فوزي محمد الشايب، السّمات المشتركة للمعبودات الحدوديّة في مصر القديمة، المؤتمر الدولي الأول لدراسات الشرق الأدنى القديم، المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم، جامعة الزقازيق، 2010، ص64.

والطّيش، فإنّه لم يُعرف عنه أنّه سبّ أو سخط أو نطق لسانه بكلمة جارحة.»[1]، فبوذا بخطابه هذا أراد أن يقول بطريقة غير مباشرة، أنّ "البوذيّة" متسامحة حيال كلّ الدّيانات الأخرى.

ولتحقيق السّعادة الرّوحيّة، أقام "بوذا" جملة من الأخلاق الوسطيّة أطلق عليها "الطّريق الوسيط"، ولهذا الطّريق طرفين، وعلى المريد الرّاغب في حياة روحيّة خالصة الإبتعاد عنهما. إحدى هذين الطّرفين يمثل الحياة الوضيعة المليئة باللّهو، والآخر يمثل الحياة القاسيّة المليئة بالحرمان. ويرى "بوذا" أنّ الحكيم فقط من يمرّ بالطّريق الواقع بين هذين الطرفين المؤدي إلى حياة الطّمأنينة والسّلام (النيرفانا)، «أمّا الفضائل التي تتوسّط هذين الطّرفين فهي: الشّجاعة والتّسامح والتّودد.»[2] ولقد جعل بوذا التّسامح أحد هاته الأخلاق الوسطيّة المُشكِّلة لهذا الطّريق المؤدّي إلى الحياة التي كان يدعو إليها.

- **الحضارة الصّينيّة:**

بالنّسبة "للحضارة الصينيّة"، فقد ندّدت هي الأخرى لِاستعمال العنف كحلٍّ لفضّ النّزاعات، حيث ورد في أحد النّصوص الصّينيّة المقدّسة: «إذا أردت يومًا أن تضع حاكمًا على طريق "الطّاو"، فأشر عليه، وانصحه: لا تستعمل القوة أبدا، لكي تقهر العالم. هذا يستدعي الرّفض والمقاومة. فشجيرات الشّوك تنبت، على الطريق الذي داسته أقدام الجيوش. سنوات عجاف، دائمًا تلي سنوات الحروب الكبرى إفعل ما يجب عليك أن تفعله، ولكن أبدًا _ لا تستغلّ قوتك.»[3]

وقد دعا "كونفشيوس" حكيم الصّين العظيم، إلى المحبة والسّلام والتّسامح بين النّاس، وذلك بتشجيع الجانب الخيّر في كلّ إنسان. وفي ذلك يقول فيلسوف الصّين العظيم: «إذا تقرّر هذا المبدأ أضحى العالم كلّه مدينة فاضلة... فيها يخاطب النّاس بعضهم بعضًا بإخلاص، ويخيّم عليهم السّلام الشامل... وتُكبت شياطين الأنانيّة. وأمّا اللّصوص والنّهابون والخونة فلن تبلى بهم

[1] محمد عبد الرّحمن مرحبا، المرجع في تاريخ الأخلاق، مرجع سابق، ص221.
[2] السّيد محمد بدويّ، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الإجتماع، دار المعرفة الجامعيّة، (د.ب)، 2000، ص25.
[3] لوتسو، الطريق إلى الفضيلة، تر: علاء الديب، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، (د.ب)، 1998، ص36.

الأرض بعد ذلك. إنْ أريد إلّا الإصلاح، فإنّ غاية ما أتمنى أن أرى الوئام يعمّ الجنس البشريّ بأسره وينشر لواءه فوق النّاس جميعًا.»[1]

ج- التّسامح في الحضارات الغربيّة القديمة:

- الحضارة اليونانيّة:

كباقي الحضارات لا نجد مفهومًا فلسفيًا واضحًا للتّسامح في "الحضارة اليونانيّة"، بِاعتبار أنّ هذا المصطلح لم يظهر إلّا في العصر الحديث مع فلاسفة "التّنوير". لكن يمكن أن نستوحي أو أن نستخلص بعض المفاهيم الدّالة عليه، كالحرّيّة واِحترام وتقبّل الآخر بِاختلافه، وكذا رفض مبدأ الوثوقيّة في إمتلاك الحقائق، إنّ مثل هذه المفاهيم نجدها بالتّحديد عند "السّفسطائيين".

كان "السّفسطائيون" يؤمنون بفكرة أنّ الإنسان معيار كلّ شيء، وأنّ ما يملكه من معارفٍ يعتقد بأنّها صحيحة، قد تكون خاطئة لدى الآخرين، فما أراه أنا خيّرٌ وحسنٌ قد يبدو لغيري شريرٌ وقبيحٌ، هذا الأمر وإن اِعتبره بعض النُقّاد تضييعٌ للحقيقة، إلّا أنّه لو نظرنا بعينٍ إيجابيّة، لوجدنا أنّ فكرهم ما هو إلّا تأسيسٌ لمبادئ الحرّيّة واِحترام وتقبّل الآخرين، الّتي تفضي إلى فضيلة التّسامح، بالإضافة إلى أنّهم كانوا السّبّاقين بدعوتهم إلى الإقرار بحقوق الإنسان، «فمن الممكن أن تلمس الأسس الفلسفيّة لميلاد مفهوم حقوق الإنسان في الفكر اليونانيّ قديمًا بدءًا من السّفسطائيين، خاصة في فكرة القانون الطّبيعيّ لديهم، ودعوتهم الحارّة للعودة إلى حياة الطّبيعة، وإلى ما تنصّ عليه من حرّيّة ومساواة بين كلّ الأجناس... لقد جعل زعيمهم بروتاجوراس شعاره الإنسان معيار الأشياء جميعًا قاصدًا بذلك أنّ عقل الإنسان الحرّ هو الحَكم الأَوحد في المعرفة، وفي السّياسة والأخلاق»[2]

[1] محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع في تاريخ الأخلاق، مرجع سابق، ص259.
[2] محمود مراد، المصادر السفسطائيّة اليونانيّة لحقوق الإنسان، أبحاث المؤتمر الدّولي الثاني لقسم الفلسفة (الفلسفة وحقوق الإنسان)، المجلس الأعلى للثقافة، 2010،ص147.

- **الحضارة الرّومانيّة:**

عرفت "الحضارة الرومانيّة" في إحدى فتراتها، ظهور تيّارٍ يمتاز بالإنسانيّة والإنفتاح على جميع الشّعوب، على عكس الحقب الأخرى الّتي شهدتها. حيث عمل الإمبراطور "قنسطنطين" (306م-338م) على تهدئة نزعة التّعصب الرّوماني بدعوته إلى المساواة ومعاملة الشّعوب الأخرى بالطيبة والإحترام، «و يُجمع جمهور الباحثين على أنّ لقنسطنطين أهميّة خاصّة في تاريخ الإمبراطوريّة الرّومانيّة المتأخرة وذلك نظرًا لأعماله الهامّة التّي كان لها أثر واضح على تغيير وجه التّاريخ وتحقيق الإنتقال من العالم القديم إلى عالم العصور الوسطى حيث قام ضمن أعماله بعمليتين على قدر كبير من الخطورة وهما:[1]

- الإعتراف بالمسيحيّة
- نقل عاصمة الإمبراطوريّة من روما إلى روما الجديدة Roma Nouva ...حيث عُرفت بإسم القسطنطينيّة Constantinople»، وبإعتبار أنّ الإنسان كائن بشريّ طبيعيّ لا يتميّز عن غيره لا بلونه ولا بجنسه، أكّدوا بذلك على المبادئ الأخلاقيّة، كالمحبّة والتآخي والتّخلص من العصبيّة والعنصريّة التّي لا تتوافق والأخلاق الفاضلة. ويمكن أن نلمس التّسامح عند الرّومان في بعض نصوصهم ودساتيرهم القانونيّة ومعاهداتهم، كالمرسوم الذي أصدره الإمبراطور "قنسطنطين"، «وتسجّل معظم المراجع والمصادر التّي تعود إلى هذه الفترة أنّ قنسطنطين في سنة 313 م قد أصدر مرسوم ميلانو الذي يقضي بالتّسامح مع المسيحيين... وقد جاء في هذا المرسوم: [2]

- منح الحرّيّة الدّينيّة لجميع الإمبراطوريّة .
- التّسامح مع المسيحيين ووقف اِضطهادهم.
- إلغاء كل القرارات الصّادرة ضدّهم.
- رد كل الأملاك والأماكن التّي صُودرت من المسيحيّة وبأقصى سرعة.

[1] أحمد غانم حافظ، الإمبراطوريّة الرّومانيّة من النشأة إلى الإنهيار، دار المعرفة الجامعيّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الإسكندريّة، 2007، ص95.
[2] المرجع نفسه، ص103.

- إتخاذ إشارة الصّليب علامة مميّزة للمسيحيين والجنود.
- إعتبار يوم الأحد من كلّ أسبوع عيدًا للمسيحيين.
- إجازة حقّ الإرث بالوصيّة لصالح الكنيسة.
- تصبح المسيحيّة ديانة شرعيّة ضمن ديانات الدّولة ومساويّة لكلّ الدّيانات الأخرى.»

د- التّسامح في الحضارة الإسلاميّة:

لقد كان "التّسامح" حقيقة معاشة ومتجسّدة في "الحضارة الإسلاميّة"، وكان الدّين الإسلامي دين عدلٍ وحرّيّةٍ وسلامٍ، فحرص بذلك على تأكيد مبدأ "التّسامح" بين الأديان بجعله عنصرًا جوهريًّا من عناصر عقيدته، معتبرًا الأديان السّماويّة الأخرى حلقات متّصلة مصدرها واحد وغايتها واحدة، «وشجعت الحضارة الإسلامية على التفاعل مع الثّقافات والحضارات جميعاً. ونعني بالتسامح الديني _ تحديداً _ أن تكون لكل طائفةٍ في المجتمع الإسلامي، الحرّيّة في تأدية شعائر دينها، وأن يكون الجميع أمام قوانين الدولة الإسلامية سواء. وإذا نظرنا إلى الإسلام من حيث مبادئه وتعاليمه الأصليّة، نجد أنه هو أرقى الأديان فيتحقيق مبدأ التسامح الذي هو القاعدة الأولى للتفاعل الحضاري»[1]، ومن هذا المنطلق أمرنا الله عزّ وجلّ بالإيمان بجميع أنبيائه ورسله وما أنزل عليهم من وحيٍ، قالى تعالى في محكم تنزيله: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»[2]، بالتّالي كانت الأحقاد العقائديّة والدّينيّة غريبة عن الأمّة الإسلاميّة إلى حدٍّ ما، إستنادًا لما أقرّه الإسلام منذ البداية من تَعَدُّدات دينيّة وثقافيّة وغيرها، فصارت هذه التّعدّديّة من الأمارات الّتي ميّزت تعاليمه.

ويعدّ "الرّسول" صلى الله عليه وسلم أعظم مثالٍ في التّسامح، فبعد القسوة والظّلم والتّعذيب التي لقيّها عليه الصّلاة والسّلام وأتباعه من قومه، هاجر إلى المدينة المنوّرة أين كان يمكث اليهود والنصارى، وهناك أسس مجتمعًا يسوده السّلام، فالحرّيّة الدّينيّة مكفولة للجميع بإعتبارها

[1] عبد العزيز بن عثمان التويجري، صراع الحضارات في المفهوم الإسلاميّ، منشورات المنظّمة الإسلاميّة للتّربيّة والعلوم والثّقافة إسيسكو، الرّباط، 2002، ص24.
[2] البقرة، الآية 285.

مبدأ أكّد عليه الإسلام، يقول جلّ في علاه: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ»[1]، وقوله تعالى: «فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ»[2]، والمراد من هذه الآية هو حرّيّة الفرد في الإيمان والإعتقاد، فالقرآن الكريم ثريٌّ بالآيات الدّاعيّة إلى فضيلة التّسامح «التي تؤكّد بكلّ وضوحٍ على أنّ الإسلام قد أقرّ حرّيّة الإعتقاد كَشَكْلٍ من أشكال التّسامح وجعلها عنوانًا لحرّيّة الإنسان الحقيقيّة وأوّل حقوقه الأساسيّة.»[3]

وعندما عاد "الرّسول" صلى الله عليه وسلم إلى قومه ومكّة فاتحًا، سألهم فقال: ««يا معشر قريش _ أو يا أهل مكة _ .. ما ترون أنّي فاعلٌ بكم؟» قالوا: «خيرًا، أخٌ كريمٌ، وإبن أخٍ كريمٍ» قال: «إذهبوا فأنتم الطّلقاء»»[4]، فلم ينتقم "الرّسول" صلى الله عليه وسلّم ممن أساؤا إليه، فضرب أروع الأمثلة في العفوّ عند المقدرة وفي التّسامح والمحبّة.

ولقد إهتمّ المستشرقون بالدّين الإسلامي، فأثنوا على مبادئه، تقول إحدى المستشرقين: «مُنح أولئك الرّعايا (المعروفون بأهل الذّمة) حماية لا تختلف في شيءٍ عن تلك الّتي تمتعت بها الجماعة الإسلاميّة نفسها، ولمّا كانت أعمال الرّسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الرّاشدين قد أصبحت فيما بعد قانونًا يتّبعه المسلمون، فليس من الغلوّ أن تصرَّ على أنّ الإسلام لم يكتف بالدّعوة إلى التّسامح الدّينيّ، بل تجاوز ذلك ليجعل التّسامح جزءًا من شريعته الدّينيّة.»[5]

هـ- التسامح في العصر الوسيط:

عُرف العصر الوسيط بأنّه عصر الظّلم والإستبداد، الذي كانت وراءه السّلطة الكنسيّة بزعامة الباباوات والقساوسة، الذين نصّبوا أنفسهم حكّامًا على شعوبهم، فتمكّنوا بذلك من زيادة نفوذهم وسلطتهم، «وفي سبيل الحفاظ على هذا النّفوذ وتوطيده كانوا على أتمّ الإستعداد لإستخدام كلّ أساليب التّنكيل والإضطهاد لمن تسوّل له نفسه بالخروج عليهم، أو مخالفتهم أو زعزعة الثّقة في

[1] البقرة، الآية 256.
[2] الكهف، الآية 29.
[3] يوسف ذياب عوّاد، التّسامح مابين الدّين والسّياسة، المؤتمر الدّوليّ الثّامن: التّنوّع الثّقافيّ، جامعة القدس المفتوحة، طرابلس، 2015، ص06.
[4] محمّد خليل الخطيب، خطب الرّسول صلى الله عليه وسلم، دار الفضيلة للنّشر والتّوزيع والتّصدير، القاهرة، 1953، ص14.
[5] شوقي أبو خليل، التّسامح في الإسلام، دار الفكر المعاصر، لبنان، (د.ت)، ص24.

حكمهم وسلطانهم ولم يسامحوهم، وإنّما نكّلوا بهم من غير رفق ولا رحمة ولا هوادة وأذاقوهم مرارة المخالفة.»[1]

ولقد نادى باباوات الكنيسة أيام ضعفهم وإضطهادهم بالتّسامح، «فحين أحاطهم المقت والإضطهاد في القرون الميلاديّة الأولى أعلنوا مبدأ التّسامح وصرّحوا بأنّ المعتقد الدّينيّ أمر إختياريّ لا سبيل إلى إكراه النّاس...فلمّا إنتهى الإضطهاد في عصر الإمبراطور قسطنطين بموجب مرسوم ميلان سنة 313، وبدأت الكنيسة تظفر بالسّلطان، غيّرت سنن شريعتها وتنكّرت لمبدأ التّسامح حيث سُنّت القوانين لمحاربة الهرطقة والتّنكيل بدُعاتها، وفرضت رقابتها على آراء النّاس في الكون وظواهره وأسراره، ثمّ شَرَعُوا في وضع سياسة محددة لقهر الفكر وكبح العقل.»[2]

ولعلّ القدّيس "أوغسطين" أبرز رجالات الفكر والكنيسة المسيحيين الذين دافعوا عن هؤلاء، رغم الإضطهاد الصّادر، مبرّرًا تصرفاتهم تلك بأنّها صادرة عن حب في شعبهم ومخافة إرتكابهم الخطيئة وكذا دفاعًا عن المسيحيّة، «وقد أحسّ أوغسطين بأنّ الكنيسة المسيحيّة الناهضة هي تلك السّلطة التي كان يحتاج إليها العصر.»[3]، كذلك مُنِعَ في هذا العصر محاولة الفهم ومناقشة النّصوص الدّينيّة _الصادرة عن القساوسة_ وفي هذا قال القدّيس "أوغسطين" لصديقه: «لا تعارض بحجج قويّة هائجة فيما لا يزال عسير الفهم عليك..أو فيما يبدو لك في الكتاب المقدّس من تباينٍ وتناقضٍ بل أَجِّل في وداعة لليوم الذي تفهم فيه!! ...إنّ الإيمان يجب أن يسبق الفهم، لا تحاول أن تفهم لكي تؤمن بل آمن لكي تفهم.»[4]

لقد تعدّدت مظاهر الإضطهاد في هذا العصر، خاصة على المفكرين الذين أتوا بمعارف وحقائق مخالفة عمّا أقرّته تعاليم الكنيسة، فمنهم من نفيّ ومنهم من حرق وآخرون أُجبروا على

[1] أحمد علي عجيبة، البابويّة وسيطرتها على الفكر الأوروبيّ في العصور الوسطى، مطابع الشّناوي، طنطا، 1991، ص39،38.
[2] المرجع نفسه، ص39.
[3] كامل محمد عويضة، أوغسطين فيلسوف العصور الوسطى، دار الكتب العلميّة، لبنان، 1993، ص48.
[4] أحمد علي عجيبة، البابويّة وسيطرتها على الفكر الأوروبيّ في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص43.

تجرّع السمّ، وغيرها من أساليب التنكيل الكنسيّة التي لا يمكن حصرها. وبهذا يمكننا القول بأنّ "التّسامح" في الأقطار الأوروبيّة خلال العصر الوسيط، لم يكن ظاهرًا لا تنظيرًا ولا ممارسةً.

و- التّسامح في العصر الحديث:

مع دخول الإنسان مرحلة العصر الحديث وبالتّحديد الفترة التّنويريّة، عرف العالم تطوّرات حاسمة في جميع المجالات خاصةً في القارة الأوروبيّة، فهذه الأخيرة عانت قرونًا من الإضطهاد والعنف بسبب التّعصّب الدّينيّ والسّياسيّ. وسط هذه الظّروف برز مفكّرون وفلاسفة أرادوا الخروج من تلك الأوضاع المتأزّمة، فكان "التّسامح" من بين ما طرحوه ضمن نظريّاتهم كحلٍّ لتلك الأوضاع. وبذلك شهد مصطلح "التّسامح" أوّل ظهورٍ له في مباحث الفلسفة.

ويعدّ جون لوك من المنظّرين الأوائل للتّسامح، حيث إرتبط مفهوم التّسامح عنده بمفاهيم تحيل إلى الحرّيّة "كاللّيبراليّة" و"العلمانيّة" و"المساواة" وإحترام حقّ التّنوّع العقائدي، وغيرها من المفاهيم التّحرّريّة. ألّف لوك "رسالة في التّسامح" التي عُدَّتْ دعوة للمطالبة بالحرّيّات، خاصة الدّينيّة منها، فكان عمله هذا من بين الصّياغات الفلسفيّة الأولى لمصطلح "التّسامح".

كما نجد "بيير بايل"* Pierre Bayle كذلك من الذين ساهموا في ظهور فكرة ومصطلح "التّسامح"، «لقد كان بيير بايل مع الفيلسوف الإنكليزي جون لوك أحد المفكّرين الكبار الذين ساهموا في إنبثاق التّسامح الدّيني في أوروبا، وكان ذلك إبّان إحتدام الصّراعات المذهبيّة بين البروتستانتيين والكاثوليكيين، وكان أوّل منظّرٍ يدعو إلى التّسامح مع الجميع بمن فيهم الملاحدة.»[1]. خاض "بايل تجربة شخصيّة قام فيها بتغيير مذهبه الدّينيّ إلى الكاثوليكيّة بعدما كان بروتيستانتيًّا، وبعد فترة قصيرة عَدَلَ عن هذا القرار بالعودة إلى عقيدته الأولى، ممّا عرّض حياته للخطر، «لأنّ الملك لويس الرّابع عشر كان يرفض أيّ إرتدادٍ عن الكاثوليكيّة التي تشكّل

* بيير بايل: مفكّر وناقد فرنسي. ولد في كارلا Carla بالقرب من فوا (Foix(Ariège في 18 نوفمبر 1647 وتوفيّ في روتردام (هولندا) في 28 سبتمبر 1706. (أنظر: عبد الرّحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، مرجع سابق، ص993.)

[1] هاشم صالح، التّسامح والحرّيّة الدّينيّة في الفكر الأوروبيّ، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدّراسات والأبحاث ، الرّباط، (د.ت)، ص04،03.

المذهب الرّسميّ في البلاد. وبالتّالي فقد أصبح الرّجل مرتدًّا لأنّه عاد إلى حضن الهرطقة من جديد. وعندما شعر بالخطر هرب إلى هولندا البروتستانتيّة مثله واِستقرّ في مدينة روتردام.»[1]

إنّ "بيير بايل" مثل "جون لوك" فالظّروف التي عاش فيها ومعاناته، كانت من الدّوافع التي جعلته يطرح مصطلح التّسامح في فكره المتّسم بالإنسانيّة، «ويدعو بيل إلى ترك كلّ إنسان لضميره، فهو المرجع الوحيد الذي ينبغي الرّجوع إليه. ولهذا ليس من حقّ أحدٍ أن يرغم ضمير غيره على أية عقيدة. ومن هنا كانت ضرورة التّسامح التّام الشّامل.»[2]

بعد ذلك عرف "التّسامح" تداولًا كثيرا واِهتمامًا كبيرًا من قِبل العديدِ من كبار فلاسفة العصر الحديث من أمثال"فولتير" Voltaire (1694-1778) و"جان جاك روسو"Jean-Jacque Rousseau (1712-1778)، و"جون ستيوارت مل" John Stuart Mill (1806-1873)، فأصبح "التّسامح" من المصطلحات الفلسفيّة التي دُرِسَتْ وفُهِمَتْ ونُقدتْ.

[1] هاشم صالح، التّسامح والحرّيّة الدّينيّة في الفكر الأوروبيّ، مرجع سابق، ص04.
[2] عبد الرّحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر، ج1، بيروت، 1984، ص401.

المبحث الثاني: منطلقات فكر جون لوك

1) المرجعيّة العلميّة والفلسفيّة: :

لقد اِستمدّ لوك من المعلّم الأوّل "أرسطو طاليس" Aristote Talis (384- 322 ق.م) الإتّجاه الحسيّ وفكرة أنّ الإنسان يولد وذهنه صفحة بيضاء، لا يوجد فيها أيّة أفكار فطريّة، ثمّ بعد ذلك يكتسب أصول المعارف عبر الحواس. فأرسطو أكدّ بأنّه لا وجود لشيءٍ في النّفس أو في العقل ما لم يكن قد مرّ بالحواس، «ويبدو ذلك المعنى من قوله كذلك في كتاب النّفس بأنّنا في غَيْبَةِ جميع الإحساسات لا نستطيع أن نتعلّم أو نفهم أيّ شيء. وهذا ما ذهب إليه لوك وخاصّة في الكتاب الأوّل من مقالة في العقل البشريّ من رفض الأفكار الفطريّة.»[1]

ولقد قدّم لوك مثالًا أراد من خلاله الاِستشهاد والتّدليل على أنّ معارف الإنسان تُكتسب عن طريق إحتكاكه بالعالم الخارجي، لهذا حاول «أن يبحث عن أصل فكرة التّفاحة وصفاتها هل هي قديمة مفطورة في نفسه، أم مكتسبة بالاِستنتاج... هل معرفته عن صفات التّفاحة وأفكارهِ عنها قد وُجدت في ذهنه منذ زمنٍ، بمعنى أنّها حاصلة فيه كمعرفة أوّليّة سابقة Apriori.»[2]، وفي ذلك قال: «هل عرفتُ منذ زمنٍ معاني الإستدارة والحلاوة والإحمرار وغير ذلك من صفاتٍ، وعندما أدركت التّفاحة تذكّرت للتّوي معرفتي السّابقة الّتي طُبعت في نفسي، وحَمِلَتْهَا روحي معي إلى العالم، فاِستطعت معرفة ثمرة التّفاح بما أعرفه من أفكارٍ سابقةٍ عنها... أم أنّي عرفت التّفاحة لأنّها مستديرة مثل شكل الكرة الّتي سبق لي رؤيتها، وعرفت أنّها مستديرة مثل شكل التّفاحة، وأنّ البرتقالة تحمل نفس صفات الإستدارة وكنتيجة لهذه الإستنتاجات عرفتها.»[3]، وعليه فقد اِختار لوك الطّريقة الثّانيّة «الّتي تأتي كمحصّلة للخبارات الحسّيّة عن طريق الاِستدلال والاِستنتاج. ورَفْضُ لوك للفكرة الأوّليّة الأولى تؤكّد إيمانه بمعطيات الخبرة الحسّيّة الّتي تعني اِستقبال

[1] فاروق عبد المعطي، جون لوك من فلاسفة الإنجليز في العصر الحديث، دار الكتب العلميّة، لبنان، 1993، ص18.
[2] راوية عبد المنعم عبّاس، جون لوك إمام الفلسفة التّجريبيّة، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، 1996، ص70.
[3] المرجع نفسه، ص70.

الإنطباعات الحسّيّة، ونقلها على صفحة العقل البيضاء... حيث تُنْتَظم وتصبح إدراكًا حسّيًّا يعطي فكرةً واضحةً، أو صورةً ذهنيّةً عن الشّيء المحسوس. وهنا تبرز قيمة العقل الإيجابيّة.»[1]

أمّا في العصر الحديث فيعدّ "روني ديكارت" René Descartes (1596-1650) من بين الذين أثّروا في "جون لوك" ، فعند اِلتحاقه بأكسفورد لدراسة الفلسفة، لاحظ ذلك الجمود والغموض الذي ميّز الفلسفات القديمة والوسطى. وكان "لوك" في أوقات فراغه يقبل على قراءة مؤلفات ديكارت فأعجب به ولفت اِنتباهه وضوح فكره فتأثر بذلك كثيرًا، «غير أنّ قراءته الخاصّة لديكارت أثارت لديه الاِهتمام بالفلسفة أكثر مما تعلّمه حينذاك بالجامعة في أكسفورد... لقد أظهرت له كتابات ديكارت أنّ التّفكير الواضح والمنظّم ممكن داخل مجال الفلسفة كما هو ممكنٌ خارجها.»[2]

ويتّفق لوك مع ديكارت فيما يخصّ المعرفة الحدسيّة التّي تُعدُّ بالنّسبة لكليهما واضحة ويقينيّة، وعلى أنّ «أفكارًا معيّنة تُعرف بأنّها صادقة عن طريق حدس مباشر. وأنّ أفكارًا أخرى يمكن أن تستنبط منها... ومن ثم كان ديكارت، من وجهة نظر لوك، محقًّا تمامًا في الاِعتقاد أنّ بعض الأفكار يمكن أن نَعرف أنّها واضحة ومتميّزة عن طريق حدسٍ مباشر.»[3]، إلّا أنّ لوك نجده قد عارض ديكارت في الكثير من أفكاره الأساسيّة خاصةً فيما يتعلّق بالمعرفة الفطريّة التّي تبنّاها، تعارضه هذا راجعٌ لتأثّره الشّديد بالفيلسوف الفرنسيّ بيير جسندي Gassendi Pierre (1592-1655) «الذي كان من أشدّ المعارضين للفلسفة المدرسيّة... والذي كان معروفًا بنقده لديكارت والدّكارتيّة خاصّةً بالنّسبة لفطريّة المعرفة ويبدو تأثير جسندي في لوك بوضوح في قوله «إنّ كلّ فكرةٍ توجد في العقل إنّما يكون أساسها راجعًا إلى الحواس فبالنّسبة للشّخص الذي يولد وهو أعمى لا يمكن أن تتكوّن في ذهنه أيّة فكرة عن اللّون ما دامت حاسّة الإبصار الّتي تؤدّي

[1] راوية عبد المنعم عبّاس، جون لوك إمام الفلسفة التّجريبيّة، مرجع سابق، ص70.
[2] فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة (المجلّد الخامس)، تر: محمود سيّد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، 2003، ص95.
[3] ويليم كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، تر: محمود سيّد أحمد، التنوير للطّباعة والنّشر والتّوزيع، لبنان، 2010، ص159،158.

إلى تكوين هذه الفكرة ناقصة فيه... وبالتّالي إذا وُجد شخصٌ فاقدٌ لجميع حواسه فإنّه لن يتمكّن من تكوين أيّة فكرةٍ على الإطلاق أو أن يتخيّل أيّ شيء.»»[1]

كما نجد جون لوك، من بين الفلاسفة الذين اِتّخذوا من المنهج التّجريبي طريقًا لأبحاثهم ودراساتهم. وهذا راجع لتأثره بزعماء هذا المسلك، من أمثال "فرنسيس بيكون" Francis Bacon (1561-1626)، وتوماس هوبز "Thomas Hobbes" (1588-1679) وبهذا «لم يكن جون لوك هو أول فيلسوف تجريبيّ بل سبقه إلى هذه النّزعة فلاسفة آخرون مهّدوا له الطّريق وبصّروه بالمنهج الذي يجب عليه إتّباعه للردّ على فيلسوف الأفكار الفطريّة... وكان من بين الذين مهّدوا له الطّريق بعد إرهاصات المذهب في العصر اليونانيّ فرنسيس بيكون وتوماس هوبز»[2]، فجميع الأفكار الّتي طرحها لوك كانت ذات طابعٍ تجريبيٍّ نابعةٍ من كتاب بيكون «الأورجانون الجديد Novum Organum وخاصّةً في قوله «إنّنا كي نعرف شيئًا أكثر فيما يتعلّق بالعلم الطّبيعيّ الذي يَعرفه الإنسان يجب علينا أن نزيد من ملاحظاتنا لقوانين الطّبيعة نفسها بحيث تكون هذه الملاحظة إمّا منصبّة على الأشياء نفسها أو بواسطة العقل لأنّه بغير ذلك لا يمكننا أن نعرف شيئًا أكثر» وهو نفس الاِتّجاه الذي ذهب إليه لوك من بعد حين جعل أساس المعرفة الإنسانيّة أو أصلها مستمدًّا من التّجربة الحسّيّة والعقل.»[3]، وهذا ما يبرّر التّأثير في تكوين اِتّجاهه الفلسفيّ تحت ما يسمى التّجريبيّة.

[1] فاروق عبد المعطي، جون لوك من فلاسفة الإنجليز في العصر الحديث، مرجع سابق، ص25،26.
[2] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر، الإسكندريّة، 2001، ص251.
[3] فاروق عبد المعطي، جون لوك من فلاسفة الإنجليز في العصر الحديث، مرجع سابق، ص27.

2) المرجعيّة السّياسيّة:

لقد دخلت مرحلة الفكر السّفسطائي بلاد اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد، أُعتبرت هاته المرحلة بمثابة الثّورة التي أتت بالتّغيير في القيم العلميّة والأخلاقيّة والسّياسيّة. فكانت الآراء متباينة إزاء هذا التّغيير بين القَبول والرّفض، والنّقد والتّأثر، ويعدّ جون لوك من أبرز هؤلاء المتأثرين بهم والنّاهلين من فكرهم، خاصّةً السّياسيّ منه. وتعدّ إشكالية الحريّة في الفكر السفسطائي، أهمّ مسألة أُعجب بها "لوك". والمدقّق لما طرحه هؤلاء من نظريات حول حقوق الإنسان، يُرْجع إليهم الفضل في الدّفاع عن حريّة الفرد، بِاعتبار أنّ السّفسطائيين أوّل من اِتّخذ من الحرّيّة الإنسانيّة أمرًا بديهيًّا في بلاد اليونان، وجعلوا من التّربيّة برنامجًا من أجل تبليغ الشّباب حقوقهم المدنيّة وكذا بثّ فيهم شعور الحريّة، التّي تُعدُّ أهم هاته الحقوق، فالحريّة بالنّسبة لهم حق طبيعيّ، حيث «طالبت السّفسطائيّة بتوفير الحقّ في الحرّيّة لإرادة الذّات الفرديّة من أجل إصلاح الحياة البشريّة والقضاء على الظّلم والجور وكل صور اِستغلال البشر القديمة الدّينيّة والطّبيعيّة والفكريّة والسّياسيّة.»[1]

ومبدأ الحريّة نجده كذلك قد تجسّد في الفكر السّياسي لجون لوك، حيث رأى أنّ الأساس الوحيد الذي يُعتمد في الحياة السّياسيّة هو ضرورة إعطاء الحريّة، وقد وضع لوك أسس الدّيمقراطيّة والتّحرريّة أو اللّيبراليّة الّتي تأخذ بعين الإِعتبار حقوق وحريّة وكرامة الفرد، و«كان لوك من أشدّ المفكرين دعوة إلى الحريّة لذلك كان يعارض الحكم السّياسيّ المطلق سواء الذي ينادي به سلفه هوبز أو الذي كان يتبنّاه المحافظون من الأسر الحاكمة في بريطانيا في عهده.»[2]

كما جاءت في الفلسفة السّفسطائيّة فكرة "العقد الإِجتماعي"، والتّي تعدّ الجديد الذي خالف ما كان سائدًا آنذاك، «فإليهم يرجع الفضل في القول بنظريّة العقد الإِجتماعي، والقول بالدّور الحمائي للقوانين بِاعتبارها تنظيمات وضعها البشر فيما بينهم لحفظ حريّاتهم، وإقامة الحياة

[1] محمود مراد، المصادر السفسطائيّة اليونانيّة لحقوق الإنسان، أبحاث المؤتمر الدّولي الثاني لقسم الفلسفة (الفلسفة وحقوق الإنسان)، مرجع سابق، ص152.
[2] إسماعيل زروخي، دراسات في الفلسفة السّياسيّة، دار الفجر للنّشر والتّوزيع، القاهرة، 2001، ص202.

المنظّمة والآمنة عليها، فكانوا المنبع الذي نهل منه فلاسفة عصر التنوير في أوربا.»[1]، وجعلوا من ضرورة أن يحقق العقد، الحياة الصّالحة للمتعاقدين شرطًا أساسيًا لمصداقيته وإلّا كان العقد باطلًا.

ونجد أنّ لوك ينتمي إلى فلاسفة العقد الإجتماعي، حيث أكدّ على أنّ الإنتقال من الحالة الطّبيعيّة إلى المجتمع السّياسيّ، يكون عبر تعاقد اِجتماعي لتنظيم المجتمع اِنطلاقًا من اِختيار ممثلين يقومون بتشريع القوانين، وأنّ الأغلبيّة هي العقل عند اختلاف المصالح، وأنّ السّلطة السّياسّة هي سيادة الشعب.

كما أنّ لوك قد اِستمدّ فكرة العقد الإجتماعي أيضًا من مواطنه توماس هوبز، الذي أقرّ بتأسيس مجتمعٍ سياسيّ عن طريق إبرام عقدٍ اجتماعيٍّ، بغية الإنتقال بالأفراد من الحالة الطبيعيّة إلى الحالة المدنيّة. «كما ساهم أيضًا في مجال الفكر السّياسيّ بآراءٍ مهّدت السبيل أمام من جاء بعده من مفكرين، وقد تناول في موضوعات الفكر السّياسي عناصر أساسيّة هامّة مثل الحالة الطّبيعة والعقد الإجتماعيّ، والسّيادة والحرّيّة، وشكل الحكومة.»[2]، إذن فلقد « اِستعارة لوك فكرته الأساسيّة عن الحالة الطبيعيّة من هوبز.»[3] ، إلّا أنّه قد اِختلف معه في تصوّره للحالة الفطريّة (الطبيعيّة)، فكان يرى بأنّها حياة تسودها الحريّة والمساواة والتّسامح والتعايش السّلميّ في ظل القانون الطبيعيّ، فقد «إبتدأ لوك من نفس الخطّ الذي اِبتدأ منه هوبز فتحدّث عن حالة الطّبيعة The State Of Nature كمرحلة سابقة على المجتمع المدنيّ، ولكن تصويره لهذا المجتمع الفطري الأوّل كان مختلفًا تمامًا عن تلك الصّورة الّتي أتى بها هوبز. كما أنّ لوك اِنتهى إلى فكرة التّعاقد بين النّاس كأساس منظّم للمجتمع المدنيّ، وهي نفس الفكرة التي نادى بها هوبز، ولكن نصوص ومواد وروح العقد الاجتماعي عند لوك تختلف تمامًا عن مثيلتها عند هوبز.»[4]

---

[1] محمود مراد، المصادر السفسطائيّة اليونانيّة لحقوق الإنسان، مرجع سابق، ص154.
[2] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، مرجع سابق، ص252.
[3] عبد الرضا حسين الطّعان وعامر حسن فياض وعلي عبّاس مراد، مدخل إلى الفكر السياسيّ الغربيّ الحديث والمعاصر، وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، (د.ب)، 2008، ص84.
[4] علي عبد المعطى، تيّارات فلسفيّة حديثة، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، 1984، ص124.

كما أنّ لوالد جون لوك الّذي كان يعمل محاميًّا تأثيرًا على فكره السّياسيّ، فقد «خاض غمار الحرب الأهليّة دفاعًا عن البرلمان.»[1]، بالإضافة إلى أنّه كان رجلًا عسكريّا بِامتياز، حيث شارك في الحرب الأهليّة مع البرلمان ضد نظام الحكم الذي كان ساخطًا عليه. فحرص الأب على توضيح الوضع السائد لإبنه وما يحتاج إليه المجتمع للخروج من هاته المعضلة، ومن هذا الظّلم والإِضطهاد الذي كان يعيشه ويكابده الشّعب. فوجد جون لوك نفسه متأثّرًا بأفكار أبيه في مجال السّياسة، وسعى بذلك إلى تحقيق وصايا أبيه التي اِعتقد وآمن بها أيّما إيمان، وهكذا «وجد جون لوك نفسه منذ البداية غارقًا، رغم أنفه، في خضم السّياسة، فهو يعيش أحداث حرب داميّة هي الحرب الأهليّة في إنجلترا بين الملك شارل الأوّل والبرلمان... وقف يناصر قضيّة البرلمان ويدافع عنها. وشرح لإبنه نظريتيْ سيادة الشعب، والحكومة النّيابيّة التي تحتاج إليها البلاد. وبقيّ الفتى مخلصًا لهذه الدّروس مؤمنًا بها، وشاكرًا ومعترفًا.»[2]

وقد تابع جون لوك حياته في أكسفورد كباحثٍ ومدرسٍ، إلى جانب ممارسته لمهنة الطّب التي برع فيها إلى حدٍّ كبيرٍ. وأثناء مزاولته لمهنته «اِلتقى لوك لأوّل مرّة... باللّورد آشلي... إحدى الشّخصيّات البارزة في بلاط الملك تشارلز الثاني. جاء اللّقاء بالمصادفة البحتة، فقد كان آشلي في زيارة لأكسفورد ليشرب من المياه المعدنيّة العلاجيّة في أستروب، لكن عواقب هذا اللّقاء كانت على قدرٍ بالغٍ من الأهميّة بالنّسبة إلى لوك... ففي غضون عام من هذا اللّقاء الأوّل كان لوك قد اِنضمّ إلى حاشيّة آشلي في لندن، ثمّ بعدها بعام خضع آشلي، راعي لوك، لعمليّة جراحيّة كبيرة لِاستئصال كيس متقيّح على الكبد تحت إشراف لوك، ونجحت العمليّة.»[3]

وبعد هذا النّجاح الذي حققه جون لوك في مجال الطّب، قام اللّورد "آنطوني آشلي" Anthony Ashley (1621–1683) بتقريبه منه، وبعد ذلك «اِلتحق بخدمته عام 1667 وظلّ صديقه وأمين سرّه.»[4]، أضف إلى ذلك أنّه قام بتعيينه في العديد من الوظائف السّياسيّة والّتي تقلّدها "لوك" بتوصيّة مباشرة أو بتدخل مباشر منه، مما أكسبه خبرة كانت الدّافع القويّ لدخوله

[1] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، مؤسسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، مصر، 2012، ص146.
[2] إمام عبد الفتّاح إمام، الأخلاق والسّياسة، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة، 2002، ص283.
[3] جون دن، جون لوك مقدّمة قصيرة جدّا، تر: فايقة جرجس حنا، مؤسسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، مصر، 2016، ص20.
[4] علي عبد المعطى، تيّارات فلسفيّة حديثة، مرجع سابق، ص90.

عالم السّياسة من أوسع أبوابها، فآشلي كان رجلًا ذو «إسهامات كبيرة في ميادين السّياسة والأخلاق. حتى قُبض عليه وزُجّ به في السّجن لكنّه اِستطاع الفرار إلى هولندا. ولا شكّ أنّ شافتسبري كان من أكثر الشّخصيّات تأثيرًا في الحياة السّياسيّة في إنجلترا إبّان حكم الملك شارل الثّاني، وذلك لكراهيّته العميقة للاِستبداد بكل أنواعه وقد اِنتقلت تلك الكراهيّة بدورها إلى صديقه لوك.»[1]

لقد اِستفاد لوك كثيرًا من مرافقته للّورد آنطوني آشلي، حيث عمل هذا الأخير على تعليمه كل ما يتعلّق بالمجال السّياسيّ وتسيير شؤون الدّولة، و«لا شكّ أنّ حجم هذا التأثير يرجع غالبا إلى مجال الخبرة الذي اِنفتح عليه لوك جرّاء عمله لدى شافتسبري، والرّؤيّة العمليّة الجديدة تمامًا للحياة السّياسيّة والاِجتماعيّة التي أتاحتها له تلك الخبرة.»[2]، وبهذا تركت هذه الشّخصيّة السّياسيّة البارزة في إنجلترا، أثرًا عميقًا في الحياة الفكريّة والسّياسيّة "لجون لوك"، فقد «كان شافتسبري هو من علّمه فهم المسئوليات الاِقتصاديّة للدّولة الإنجليزيّة في السّوق المحلّيّة وفي التّجارة الخارجيّة، وكان هو من علّمه أيضًا النّظر إلى عوامل الاِزدهار الاِقتصادي واِحتمالاته، باِعتبارهما موضع اِهتمام رئيسيًّا لفنّ الحكم وإدارة شئون الدّولة، وعاملًا أساسيًّا في تقييم مؤهلات أي مجتمع وإمكاناته. ولو أنّ الآليّة القاسيّة _ والمفعمة بالحيويّة في الوقت نفسه _ للاِقتصاد الإنجليزي في زمن لوك، قد سخّرت في النّهاية طاقات لوك الفكريّة تسخيرًا سليمًا، فإنّ الفضل في ذلك يعود إلى شافتسبري.»[3]

[1] إمام عبد الفتّاح إمام، الأخلاق والسّياسة، مرجع سابق، ص283.
[2] جون دن، جون لوك مقدّمة قصيرة جدّا، مرجع سابق، ص22.
[3] المرجع نفسه، ص20،21.

نخلص في الأخير إلى أنّ التّسامح كمصطلح في اللّغة، يعدّ القيمة والفضيلة الّتي تجمع جملة الأخلاق الدّاعيّة إلى التّساهل والصّفح والجود والكرم، وبدخول العالم العصر الحديث، أخذ التّسامح طابعًا فلسفيًّا نتيجة اِستعارة فلاسفة الغرب آنذاك لهذا المصطلح، واِتّخاذه كنظريّة فلسفيّة قائمة على أسس ومبادئ من أجل اِيجاد حلٍّ للأزمات الّتي شهدتها القارّة الأوروبيّة والّتي ورثتها عن العصور الوسطى.

وقبل أن يأخذ التّسامح مفهومًا فلسفيًّا يُنظّر له، نجده كان متداولًا عمليًّا وهذا ما لاحظناه في المجتمعات البدائيّة حين جعلوا الغاية من معاملاتهم الاِقتصاديّة والتّجاريّة، تهدف إلى مدِّ جسور المحبّة والتّعايش والتّسامح ونبذ كل أشكال الصّراع. وبِانتقال البشريّة من الحياة البدائيّة إلى مرحلة الحضارات، أُعتبر التّسامح على أنّة جزء من الأخلاق الّتي دعا إليها حكماء هته الحضارات، كحكيم الحضارة الصّينيّة كنفشيوس وبوذا حكيم الحضارة الهنديّة وغيرهم، الذين أكّدوا على الأخلاق خاصة التّسامح، فاِعتبروه من من الفضائل الرّاقيّة الّتي توصل صاحبها إلى الخلاص. أمّا الحضارة المصريّة فقد جسّدت نوعًا آخر من التّسامح حين منحت لمجتمعتها حرّيّة المعتقد، هذا عن التّسامح في الحضارات الشرقيّة ، أمّا في الحضارات الغربيّة فلقد أُعتبر السّفسطائيون من فلاسفة الحضارة اليونانيّة الّذين مهّدوا لظهور هذا المصطلح، عن طريق مناداتهم لحرّيّة الفرد ودفاعهم عن حقوقه رغم أنّ المجتمع اليونانيّ أنذاك كان مجتمعًا تسوده الطّبقيّة والعبوديّة فكانوا السّباقين بمناداتهم لحقوق الإنسان. وفي الجهة المقابلة نجد الحضارة الرّومانيّة الّتي خيّم عليها العنف الاِضطهاد خاصةً على الفئة الّتي اِتّخذت من المسيحيّة دينًا لها، وبمجيء الإمبراطور قسطنطين عرفت الحضارة الرّومانيّة جوًّا من السّلام والإنسانيّة حين اِعترف بالمسيحيّة، مانحًا بذلك الحرّيّة الدينيّة لسكان الإمبراطوريّة.

أمّا عن الحضارة الإسلاميّة فقد اِهتمّت كثيرًا بمسائل الأخلاق وركّزت على قيمة التّسامح، جاعلةً منه أحد ركائز الدّين الإسلامي الدّاعي إلى الحرّيّة الدينيّة والصّفح والعفو، فقدّموا بذلك مثالًا عن التّسامح الحق.

ولقد وصف العصر الوسيط بأنّه عصر الظّلام والإنحطاط للقارة الأوروبيّة، نظرًا لما شهدته من اِستبدادٍ وسيطرةٍ من رجال الكنيسة الذين اِعتبروا أنفسهم محاسبين لأفعال النّاس، فاِضطهدوا وقتلوا ونكّلوا باِسم الدّين، وبهذا كان العصر الوسيط عصر الظّلم والعنف حيث غابت فيه إلى حدٍّ كبيرٍ قيمة وفضيلة التّسامح.

وبتخلّص الإنسان من العصور المظلمة، دخل العصر الحديث الذي تميّز هو الآخر بصّراعات دّينيّة وسّياسيّة جعلت حرّيّات الأفراد جدّ محدودة، هذه الظروف رغم تأزّمها إلّا أنها ساعدت على ظهور مفكّرين وفلاسفة، نظّروا لمصطلح التّسامح بغية الخروج من تلك الأوضاع المحتدمة، كان أبرزهم على الإطلاق الفيلسوفين "جون لوك" و"بيير بايل".

ولقد كانت لفيلسوفنا جون لوك قاعدة علميّة وفلسفيّة وأخرى سياسيّة، تمثلت في مجموعة من الفلاسفة ورجال السّياسة الذين ساهموا في بناء خلفيّته الفكريّة ككل، من أبرزهم السّفسطائيّون وأرسطو من الحقبة اليونانيّة، وكذا آباء الفلسفة الحديثة ديكارت وفرنسيس بيكون، هؤلاء كان لهم الأثر الكبير في خلفيّة لوك العلميّة. أمّا عن المجال السّياسيّ، فكان أبوه المنهل الأوّل باِعتباره محاميّا ذو خبرة في شؤون الحكم والسّياسة، كما كان اللّورد آنطوني آشلي والفيلسوف توماس هوبز كذلك مصدرًا آخر لجون لوك في هذا الميدان.

الفصل الثاني : ظروف تبلور فلسفة التّسامح عند جون لوك وعلاقتها بفكره السّياسيّ.

المبحث الأوّل : الظّروف المساهمة في نشأة فكرة التّسامح عند جون لوك.

1) الظّروف الإجتماعيّة.

2) الظّروف السّياسيّة.

المبحث الثّاني : علاقة التّسامح بالفكر السّياسيّ لدى جون لوك.

1) التّسامح وحياة الطّبيعة.

2) التّسامح والمجتمع المدنيّ.

يقال أنّ المفكّر أو الفيلسوف إبن بيئته وظروف مجتمعه، وغالبًا ما يكون اِنتاجه الفكريّ والفلسفيّ هو اِنعكاسٌ لظروفٍ وتجاربٍ خاضها وعاشها في زمنه وعصره، أو على الأقلّ الجزء الكبير منها.

وجون لوك هو واحد من الفلاسفة الّذين خلّدهم التّاريخ، بفضل ما تركه من إنتاجٍ وإرثٍ فكريّ وفلسفيّ، وتعتبر مقالتاه في الحكم المدنيّ (1690) ورسالة في التّسامح (1681–1992)، من أبرز أعماله الفكريّة المصنّفة في المجال السّياسيّ، وأهمّ المرجعيّات في الفلسفة السّياسيّة والعلم السّياسة.

قدّم لوك فكرًا فلسفيًّا سياسيًّا يتميّز بالواقعيّة لكونه ينبع من محيطه الاِجتماعيّ والسّياسيّ، وقد كان هذا المحيط دافعًا رئيسيًّا جعله يتبنى فكرة التّسامح، الّتي أُشتُهر بها فيلسوفنا والّتي لها الأثر الواضح في نظريّته السّياسيّة.

وعليه، ففي هذا الفصل سنتناول الظّروف الإجتماعيّة والسّياسيّة الّتي عايشها جون لوك، والّتي أدّت بدورها بشكلٍ أو بآخر إلى بناء فكره الفلسفيّ السّياسيّ في اِطار فكرة التّسامح، ثمّ سنتطرّق للعلاقة القائمة بين فضيلة التّسامح كما تصوّرها لوك وبين فكره السّياسيّ.

المبحث الأوّل: الظّروف المساهمة في نشأة فكرة التّسامح عند جون لوك

1) الظّروف الاجتماعيّة:

أ- محيطه الأسري:

نشأ لوك في أسرة دينيّة وجوٍّ أخلاقيّ خالص، فأمّه «كانت على خلق كريم وورعٍ وتقوى أُشتهرت بها نساء كثيرات في ذلك الزّمان.»[1]، وقد تأثر لوك بأمّه وبأخلاقها المتسامحة وبطبعها الحنون، فقد ذكر والدته في كبره بأنّها كانت اِمرأة وأمًّا عطوفةً جدًّا، غير أنّ هذا العطف لم يدم طويلًا، فقد فارقت أمّه الحياة وهو لايزال صغيرًا تاركةً مهمة إكمال تربيّته لوالده. [2]

فتولّى الأب تربيّة اِبنه الوحيد بعد وفاة زوجته، وحرص على أنّ يرسّخ فيه الرّوح المُحبّة للحريّة والاِستقلال والخير ومساعدة الآخرين وعلى المسؤوليّة والتّسامح ومكارم الأخلاق، فنشأت شخصيّة لوك المتّزنة والمستقلّة واليقظة، وقد أشاد لوك كذلك بالطّريقة الّتي اِتّبعها والده في تّربيّته، ونصح أصدقاءه بإتّباعها في تربيّتهم لأبنائهم.[3]

«ومما يذكر عن حياته أنّ تربيّته المحافظة التي تلقاها من أسرته المتديّنة التّقيّة قد أكسبته صفة الحزم ويقظة الضّمير واِعتدال الشّخصيّة. كما علّمته الحذر والاِعتماد على النّفس، وتعدّ دعوته لاِحترام مبادئ الحرّيّة واِهتمامه بقضايا السّياسة والتّربيّة من بين الآثار الإيجابيّة لتلك التّنشئة التي أشاد بها فيما بعد في مؤلّفاته.»[4]، وما يلاحظ هنا أنّ لأسرة لوك المحافظة الأثر البالغ في تكوين حبّ الحرّيّة ومسؤوليّة الدّفاع عن حقوق الإنسان لدى لوك الرّجل، والذي كان ولايزال أحد رّجالات إنجلترا والمجتمع الإنجليزيّ الذي إن أراد التّفاخر بأبنائه ذكر جون لوك.

---

[1] إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، مرجع سابق، ص253.
[2] ويليم كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص155.
[3] علي عبد المعطى، تيّارات فلسفيّة حديثة، مرجع سابق، ص89.
[4] راوية عبد المنعم عبّاس، جون لوك إمام الفلسفة التّجريبيّة، مرجع سابق، ص18،19.

ب- الخلفيّة الدّينيّة:

تنتمي أسرة جون لوك إلى جماعة المتطهرين أو البيورتان puritans، وهي شيعة بروتستانتيّة ظهرت بين القرن السادس والسابع عشر ميلادي في إنجلترا، دعت هاته الشيعة إلى التّبسيط في الطّقوس والعبادات، والتّمسّك بالأخلاق الفاضلة من الصّبر والتّسامح وإحترام الآخر وغيرها من مكارم الأخلاق، ويعدّ أتباع هذه الطائفة من بين الذين قادوا ثورة البرلمان ضدّ الملك شارل الأوّل[1]، ولقد «إكتسب لوك من تربيّته المنزليّة أفضل سمات المذهب البيورتانيّ، مثل الشّفقة، والفطنة، والإخلاص، والإستقامة، والجدّ، والإعتماد على النّفس وحبّ الحرّيّة.»[2]

إنّ هذا الإنتماء العقائدي كان له دورًا مباشرًا في زرع فكرة التّسامح لدى جون لوك، التي تعدّ أحد أهم الأسس الّتي بنى عليها فكره وفلسفته السّياسيّة، حتّى إنّ البعض يقول «إنّ لوك الذي تربّى في أحضان البيورتانيّة أخذ الكثير من تقاليدها المتعلّقة بالقانون الطبيعي وحقوق الفرد والدّولة التي تحدّها الأسس الجوهريّة، والتّسامح بالنّسبة لضمير الإنسان.»[3]

ج- مرحلة الجامعة :

لمّا بلغ جون لوك السنّ العشرين تحصّل على منحة دراسيّة، «سمحت له بالإلتحاق بكلّيّة وستمنستر في لندن فيما بين سنتي 1646 و1653 ثمّ لم يلبث أن إلتحق بكلّيّة المسيح في أكسفورد من سنة 1653 إلى سنة 1659.»[4]، وما يجدر بنا الإشارة إليه هنا، هو أنّ كلتا الجامعتين ذات توجّه بيورتانيّ؛ أي أنّهما كانتا تحت إشراف المتطهّرين الذين عُرفوا بالتّسامح الدّينيّ كما أشرنا سلفًا، فقد عُرف عن عميد كلّيّة المسيح حينذاك دفاعه الشّديد عن التّسامح الدّينيّ، بالإضافة إلى أنّ مستشار جامعة أكسفورد الذي كان يمثّل تيّار الحريّة والدّفاع عن حقوق الإنسان في حدّ ذاته كافيًا لكي تهيمن تلك الأفكار والمبادئ عليها، الأمر الذي دفع بلوك إلى التّمسك أكثر بفكرة التّسامح، ولقد خالط لوك في المرحلة الجامعيّة، العديد من الأصدقاء

[1] ويليم كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص155.
[2] المرجع نفسه، ص155.
[3] موسى إبراهيم، الفكر السّياسي الحديث والمعاصر، دار المنهل اللّبناني، بيروت، 2011، ص116.
[4] محمد علي أبو ريّان، تاريخ الفكر الفلسفي، دار المعرفة الجامعيّة، ج4، (د.ب)، 1996، ص161.

والطّلاب رغم اِختلاف آرائهم وتوجّهاتهم ومعتقداتهم، فكان منهم الملكيّ والجمهوريّ وكذا الإنجيليّ...اِلخ، وقد تعامل معهم بكل اِحترامٍ وحريّةٍ. كان هذا الجوّ الفكريّ الحرّ مناسب جدًّا لنمو فكرة التّسامح لديه، وعليه فهذه المرحلة من حياة لوك، تعدُّ بداية الإِكتساب الواعي والمقصود لفكرة التّسامح لديه. [1]

[1] محمد علي أبو ريّان، تاريخ الفكر الفلسفيّ، مرجع سابق، ص162،161.

2) الظّروف السّياسيّة:

إنّ الظّروف السّياسيّة التي مهّدت لجون لوك لفكرة التّسامح، تعود في الأصل إلى جذور دينيّة تداخلت مع مرور السّنين والمجال السّياسيّ. ولمعرفة هاته الظّروف علينا العودة إلى جذورها الحقيقيّة، بالضّبط إلى بداية اِنشقاق الدّين المسيحي أو بشكل أكثر دقّة إلى الاِنشقاق البابويّ والكنسيّ، هذا بدوره يوجب علينا العودة إلى الحركة اللّوثريّة التي كانت أحد أبرز العوامل التي أدّت إلى هذا الاِنقسام.

تُنسب الحركة الّوثريّة إلى "مارتن لوثر" Martin Luther (1483-1546)، الذي ولد «في مقاطعة سكسونيا بألمانيا من والدين فقيرين يعملان بزراعة الأرض... وفي عام 1505 دخل الدّير وأصبح راهبًا»[1]. إنّ دخول لوثر إلى عالم الرّهبة مكّنه من تقلّد مناصب في الكنيسة، وفي إطار أشغال هته المناصب، أرسل "مارتن لوثر" في مهمّة رسميّة إلى كنيسة روما، كانت هذه الرّحلة منعرجًا خطيرًا بالنّسبة للكنيسة. حيث لاحظ "لوثر" ذلك الاِنحطاط الأخلاقي الذي تفشى بين رجال الدّين. وقد صرّح بذلك في قوله[2]: «إنّ كلّ من يذهب إلى روما يشعر بأنّ عقيدته الدّينيّة تترنّح تحت الضّربات التي تصيبه من جراء ما يرى هناك.»[3]، وهذه العبارة، إنّما تدّل على مدى سخطه على رجال الكنيسة الذين اِنحرفت أهدافهم وغاياتهم عن الدّين المسيحي الحق، فثار لوث على هذا الاِنحراف خاصةً فيما يتعلّق بصكوك الغفران التي أقرّها باباوات الكنيسة الكاثوليكيّة لأغراض شخصيّة بحته، مدّعين بأنّها جزءٌ من الخلاص، وأنّ شراءها يضمن للمذنب الجنّة بعد اِعترافه للقساوسة بأخطائه والذّنوب التي اِرتكبها، «لكن لوثر صرّح بأنّ صكوك الغفران بل والبابويّة ذاتها بدعة مستجدّة لم تكن معروفة في عهد الرّسل الأوّلين وأنّ المجامع الدّينيّة ليست معصومة من الخطأ.»[4]، فعزم بكل جرأة على الإصلاح وتنقيّة المسيحيّة من هته الأغاليط

[1] شوقي عطاالله الجمل وعبد الله عبد الرّزاق، تاريخ أوروبا من النّهضة حتّى الحرب الباردة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2000، ص47.
[2] المرجع نفسه، 47.
[3] المرجع نفسه، ص47.
[4] المرجع نفسه، ص48.

الدّخيلة عنها، لكن رجالات الكنيسة لم يستجيبوا لما أقرّ به لوثر، فدعا الحكومة الألمانيّة للضغط عليهم بالإعتماد على جملة من المبادئ[1]، «وقد لخّص لوثر المبادئ التي نادى بها فيما يلي[2] :

1- إخضاع رجال الدين للسّلطة المدنيّة.

2- إباحة زواج رجال الدّين وقد تزوّج هو فيما بعد بإحدى الرّاهبات كاترين بورا.

3- الحدّ من الأديّرة والإتجاه لإلغاء الرّهبنة والدّيريّة.

4- ليس للبابا الحقّ في إحتكار تفسير الإنجيل.»

وجراء هذا الطّرح اللوثريّ الجريء، حاول رجال الكنيسة فرض عقوبات قاسيّةٍ عليه، إلّا أنّ حصانة "فريدريك" أمير سكسونيا آنذاك للوثر، حالت بينه وبين هته العقوبات، وقد إنجرّ عن هته الحركة الإصلاحيّة بروز قوتين دينيّتين متصارعتين تمثلت في الكاثوليكيّة والبروتستانتية بمختلف مذاهبها. هذا الصّراع بدوره أدّى إلى إدخال أوروبا في حروب دينيّة دمويّة ذات طابع سياسيّ. وتعدّ إنجلترا من بين الدّول التي شملها هذا الإصلاح بالتّحديد في عهد الملك "هنري الثّامن"، كانت الغاية من هذا الإصلاح مختلفة تمامًا عمّا كان يسمو إليه مارتن لوثر.[3]

وقبل الخوض في الإصلاحات التي عرفتها إنجلترا، علينا أولًا أن نلقي نظرةً نعرف من خلالها شكل نظام الحكم في إنجلترا قديما وكيفيّة تشكل البرلمان، لأنّ هذا الأخير كان الجزء المهمّ الذي أثّر في حياة جون لوك فيما بعد. ولا شكّ أنّ النّظام الذي عايشه لوك ما هو إلّا إمتداد للنّظام القديم.

كانت إنجلترا كباقي الدّول الأوروبيّة ذات حكم ملكي مطلق أي؛ أنّ ملوك إنجلترا كانوا يستمدون شرعيّة حكمهم المطلق من الحقّ الإلهي، ولا يمكن لأحدٍ أن يحاسبهم سوى الله[4]، «بل حتّى بعد أن تشكّل ما يسمى بمجلس الملك King Council أو مجلس شورى الملك Witan _

[1] شوقي عطاالله الجمل وعبد الله عبد الرّزاق، تاريخ أوروبا من النّهضة حتّى الحرب الباردة، مرجع سابق، ص48.
[2] المرجع نفسه، ص49،48.
[3] المرجع نفسه، ص49.
[4] إمام عبد الفتّاح إمام، الأخلاق والسّياسة، مرجع سابق، ص307.

فإنّ هذا المجلس لم يكن له الحقّ في الحدّ من سلطات الملك... بإختصار لم يكن لهذا المجلس الدّستوري دورٌ سوى مساعدة الملك على الإنفراد بالحكم.»[1]، وفي عام (1199م) إعتلى الملك "جون لاكلاند" John Lackland (1168-1216م) بعد أخيه الملك "ريتشارد الأول" Richard I (1157-1199م)، فكان كلاهما ملوكًا جبابرة ديكتاتوريين خاصةً الملك جون، فهذا الأخير كان يفرِض على شعبه ضرائب ثقيلة جدًّا، خاصة النبلاء منهم وقد بلغ به الأمر إلى حدّ مطالبتهم بالمال مقابل إعفائهم من الخدمة العسكريّة. فإزداد إستبداده وظلمه أكثر مما أدّى إلى إنقلاب النّبلاء والأشراف عليه، فألحقوا به هزيمة أجبرته على الإستسلام والتوقيع على وثيقة عرفت بالعهد الأعظم[2]، «ويرى بعض المؤرخين أنّ هذه الوثيقة الهامة _ العهد الأعظم _ هي أساس الحريات في العالم الناطق بالإنجليزيّة حتّى يومنا الرّهن.»[3]، وقد إعتبروه إنتصارًا على سلطة الملك المطلقة، «وقد جاء في هذه الوثيقة: من جون ملك إنجلترا بعناية الله تعالى ... إلى كبار أساقفته، وأساقفته، ورؤساء أديّرته، وحملة ألقاب إيرل، وكبار البارونات في البلاد،... وجميع رعاياه الأوفياء. إعلموا أنّنا بهذا العهد نؤكد عنّا، وعن ورثتنا أبد الدّهر مايلي:

1- أنّ كنيسة إنجلترا ستكون حرّة لا يتعدّى أحد على شيء من حقوقها وحرّيتها .

2- أنّنا نمنح جميع الأحرار في المملكة _ عنّا وعن ورثتنا أبد الدّهر _ جميع الحرّيات المدوّنة فيما بعد.

3- ألّا يفرض بدل خدمة أو معونة إلّا المجلس العام في المملكة.

4- لكي يجتمع المجلس العام بتقدير المعونات، وبدل الخدمات... سنأمر باستدعاء: كبار الأساقفة، ورؤساء الأديّرة، وحملة ألقاب إيرل، وكبار البارونات في البلاد.

5- لا يقبض على رجل حرّ، أو يسجن، أو تنزع أملاكه، أو يخرج من حماية القانون، أو ينفى، أو يؤذى بأيّ نوع من الإيذاء... إلّا بناءًا على محاكمة قانونيّة.

6- لا يحرم إنسان من العدالة أو من حقوق الإنسانيّة.

---

[1] إمام عبد الفتّاح إمام، الأخلاق والسّياسة، مرجع سابق، ص307.
[2] المرجع نفسه، ص307،308.
[3] المرجع نفسه، ص309.

وقّعناه بيدنا بحضور الشّهود في اليوم الخامس عشر من شهر يونيو من السّنة السّابعة عشر من حكمنا...»[1]، وعلى إثر هذه الوثيقة أسس المجلس العام الذي عُرف فيما بعد بالبرلمان. وفي عهد الملك "إدوارد الأوّل" Edward I (1239-1307م) إبن الملك جون الذي حكم ما بين (1272-1307م)، عرف البرلمان تطوّرًا مهمًا[2]، «فقد دعا الملك اِثنين من المواطنين من كلّ مدينة، ومقاطعة إلى حضور المجلس الكبير الذي سيعقد في وستمنستر، ونصّ المرسوم على اِختيار هؤلاء الرّجال من ذوي المكانة من المواطنين في كلّ منطقة... واِتّفق في هذا العام (1295) على مبدأ ديمقراطي بالغ الأهميّة هو أنّ القانون الذي يقرّه البرلمان لا يلغيه إلّا البرلمان ثمّ اِتّفق بعد ذلك بعامين (1297) على مبدأ هام آخر هو ألّا تجبى الضّرائب إلّا بعد موافقة البرلمان.»[3]

وفي عهد الملك "إدوارد الثالث" Edward III (1312-1377م) وقعت حروب، ولأنّ الملك كان بحاجة إلى التّمويل، قام بفرض ضرائب على أثرياء المملكة إلّا أنّهم رفضوا اِستنادًا لوثيقة العهد الأعظم، فعرض عليهم الدّخول إلى البرلمان. وبهذا اِنقسم البرلمان إلى مجلسين، مجلس للوردات ومجلس العموم.[4]

وفي عهد الملك "ريتشارد الثّاني" Richard II (1367- 1400م)، ثار الشّعب على مرسوم ملكيّ ينصّ على تقديم ضريبة لكلّ شخص يبلغ السّنّ الخامسة عشر، وككلّ مرّة يفرض الملوك هذه الضّرائب من أجل تغطيّة نفقات الحرب، لكنّ الشّعب في هذا العهد أبدى وعيه الشّديد بجميع حقوقه، فثار على الملك، مطالبين كذلك بالحرّيّة وإزالة الفروقات الطّبقيّة في المجتمع وإلغاء الإقطاعيّة والعبوديّة. وفي آخر المطاف اِستجاب الملك لمطالبهم، وتعدّ هذه الاِستجابة خطوة مهمة حقّقها الشّعب نحو الديمقراطيّة. [5]

---

[1] إمام عبد الفتّاح إمام، الأخلاق والسّياسة، مرجع سابق، ص309.
[2] المرجع نفسه، ص310.
[3] المرجع نفسه ، ص310.
[4] شوقي عطاالله الجمل وعبد الله عبد الرّزاق، تاريخ أوروبا من النّهضة حتّى الحرب الباردة، مرجع سابق، ص68.
[5] إمام عبد الفتّاح إمام، الأخلاق والسّياسة، مرجع سابق، ص312.

وفي فترة حكم "هنري السّادس" Henry VI (1421-1471م)، صدر «قانون يقرّر عام 1439 مبدأ الإنتخاب لإختيار الممثّلين عن كل مدينة كبيرة أو مقاطعة بعد أن كان الملك يقوم بتعيينهم.»[1]

ولقد عرفت إنجلترا في عهد الملك "هنري الثّامن" Henry VIII (1509-1548م)، إصلاحات دينيّة كان الغرض منها مصالح سياسيّة وأخرى شخصيّة، فهنري كان يشتهر بأنّه ملك غارق في المجون والتّرف والنّزوات، وهذا يعني أنّ جملة الإصلاحات التي أجراها هنري لم تكن غايتها دينيّة. ولقد وجد هنري صعوبة في تحقيق رغباته تلك بسبب إصطدام مصالحه مع سلطة كنيسة روما الكاثوليكيّة. ولكي يسوّغ لمآربه ومصالحه الشّخصيّة قام بالإنفصال عن كنيسة روما، وتشييد كنيسة خاصة بإنجلترا تحت سلطته الخاصّة، متأثرًا بأمراء ألمانيا الذين أقاموا كنائس خاصة بهم بعدما قاطعو الكنيسة الرّومانيّة.[2] «وقد إقتنع هنري بهذا الحلّ وإعتبر نفسه زعيمًا من زعماء الإصلاح الدّيني، ولكن كان في داخل نفسه بهدف إلى توحيد السّيادة في البلاد... وبالتّخلص من سيادة الكنيسة البابويّة سيستطيع تحقيق مآربه... وهكذا ظهر الإصلاح الدّيني في إنجلترا بشكل دينيّ وسياسيّ معًا.»[3]

وبإعتلاء "إدوارد السّادس" Edward VI (1537-1553) عرش المملكة، عرفت إنجلترا دخول المذهب البروتستانتي بإعتبار أنّ خاله "آرل هرتفورد" كان وصيًّا عليه بعد وفاة والده هنري الثّامن والذي كان ذا توجّه بروتستانتي،[4] وعند وفاة إدوارد السّادس تولّت الملكة "ماري" Mary (1516-1558) شؤون الحكم وقد «إنحصرت جهودها في إلغاء كافة القوانين التي صدرت من البرلمان وغيره ضدّ الكنيسة الرّومانيّة في فترة هنري الثّامن وإدوارد السّادس وإستئناف العلاقات

[1] إمام عبد الفتّاح إمام، الأخلاق والسّياسة، مرجع سابق، ص313.
[2] لبنى رياض عبد المجيد الرّفاعي ومحمّد حمزة حسين الدّليمي، تاريخ أوروبا في عصر النّهضة، دار إبن الأثير للطّباعة والنّشر، بغداد، 2014، ص163.
[3] المرجع نفسه، ص165.
[4] المرجع نفسه، ص168.

بين الكنيسة الإنجليزيّة والكنيسة الرّومانيّة، واِستخدمت العنف في ذلك حتّى أُطلق عليها اِسم ماري الدّمويّة Bloody Mary.»[1]

توحّدت إنجلترا واُسكتلندا في عهد الملك "جيمس الأوّل" James I (1566-1625)، إبن ماري اِستيوارت وقد، كان جيمس شديد التّمسك بفكرة حق الملوك الإلهي في الحكم، رافضًا بذلك تدخل البرلمان في السلطة والحكم، فدخل هذا الملك في نزاع مع البرلمان حين تجاهل موافقتهم من أجل فرض الضّرائب، وعند تصدّي البرلمان لقراره هذا، قام جيمس بحلّ البرلمان.[2]

وخلفًا لجيمس الأوّل اِستلم إبنه "شارل الأوّل" Charle I (1600-1649) أمور المملكة _ وهو العهد الذي ولد فيه جون لوك _ فورث عنه الحكم وكذا العديد من المشاكل التي كان سببها تعسّف جيمس الأوّل واِستبداده، ولم يكن شارل الأوّل مختلفًا عن أبيه البتّه، فكان هو الآخر مؤمنًا بفكرة الحق الإلهي للملوك في الحكم، ولقد اِشتهر بعدائه الشّديد للطائفة البروتستانتيّة وللبرلمان،[3] «وكان لسياسة شارل الأوّل الدينيّة من أسباب زيادة نفور الشّعب منه فقد تزوّج من أميرة فرنسيّة (شقيقة الملك لويس13) ملك فرنسا. واِتّفق مع الملك الفرنسي على وضع الكاثوليك الإنجليز تحت حمايته. وترتّب على هذا الإتّجاه أن اِتّجه مجلس العموم البريطاني إلى اِتّخاذ سياسة بروتستانتيّة متطرّفة.»[4]، فثار البرلمان والشعب على الملك، وكان والد جون لوك من بين أولئك الثّائرين[5]، و«كتب لوك عن مولده يقول: «ما كدت أحسّ بوجودي حتّى وجدتني في زوبعةٍ». وقد هبّت الزّوبعة في بلدة رنجتون الصّغيرة، إلى الشّمال من سومرست شير. وكانت في الواقع زوبعة عاصفة بل كانت إعصارًا من الاِضطراب السّياسي اِجتاح ريف إنجلترا المشمس... ذلك أنّ الملك شارل الأوّل _ الأوّل في التّعصّب والخيلاء والطّغيان _ قد حلّ البرلمان الإنجليزي، وحاول أن يحكم وحده... كان وقتًا أُزهقت فيه النّفوس، وحطّمت

[1] شوقي عطاالله الجمل وعبد الله عبد الرّزاق، تاريخ أوروبا من النّهضة حتّى الحرب الباردة، مرجع سابق، ص65.
[2] المرجع نفسه، ص69.
[3] المرجع نفسه، ص71.
[4] المرجع نفسه، ص 71.
[5] عثمان نويّة، المفكّرون من سقراط إلى سارتر، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، 1970، ص180.

الرؤوس.»[1]، وأدّت هذه الثّورة إلى إلغاء النّظام الملكيّ، وقيام الحكم العسكريّ بقيادة زعيم الثّوار "أوليفر كرمويل" Olivar Cromwell (1599-1658م)[2]

ثمّ عاد النّظام الملكيّ بِاعتلاء الملك "شارل الثّاني" Charles II (1661-1685م) الحكم، أين عرفت إنجلترا نوعًا من الهدوء المؤقت، نظرًا لتجنّبه الصّراع مع البرلمان، والّتي عانى منها الشّعب البريطاني، لكن شارل الثّاني إبن الملك شارل الأوّل لم يكن بتلك البراءة التي كانت ظاهرةً للشّعب، فقد كان يؤمن هو أيضًا بالحكم المطلق، وإنّ عدم دخوله في صراع مع البرلمان كان في الحقيقة، خوفه من أن يلاقي نفس مصير أبيه، بالإضافة إلى أنّ البرلمان كان مؤيّدا لجميع قرارات الملك تفاديًا لقيام حروب دمويّة أخرى هم في غنًا عنها[3]. ولقد وافق البرلمان على عدة قوانين ملكيّة كانت ضدّ طائفة البيورتان _ التي كان جون لوك ينتمي إليها _، وبِاعتبار أنّ الملك من أتباع كنيسة روما الكاثوليكيّة فقد اِتّبع سياسة التّسامح دون غيرهم. ولقد وقّع شارل الثاني معاهدة مع ملك فرنسا "لويس الرّابع عشر" Louis XIV (1638-1718م)، تنصّ على وجوب تأييد شارل الثاني للكنيسة الكاثوليكيّة، وتقديم المساعدة للويس أثناء حروبه، مقابل تمويل "شارل" بالأموال والعتاد الحربيّ والجنود في حالة قيام ثورة شعبية أو انقلاب ضده.[4]

وهنا وجد جون لوك نفسه داخل هذه التّضاربات والصّراعات الدّينيّة والتّقلّبات السّياسيّة، وفي ظلّ هذا الجوّ تعرف لوك كما ذكرنا سلفًا على لورد شافتسبري، «وكان لورد آشلي، صديق لوك الجديد، في طليعة السّياسيّين المناهضين للملك وإباحيّته وحقه المقدّس، والذائدين عن مزايا الحكومة النيابيّة. وكان صدام جديد يوشك أن يقع بين الملك والطّبقة الوسطى، وكان من حظّ لوك أن أُتيحت له أحسن الفرص ليرقب تلك المسرحيّة السّياسيّة العظيمة.»[5]

[1] عثمان نويّة، المفكّرون من سقراط إلى سارتر، مرجع سابق، ص179.
[2] لبنى رياض عبد المجيد الرّفاعي ومحمّد حمزة حسين الدّليمي، تاريخ أوروبا في عصر النّهضة، مرجع سابق، ص190.
[3] شوقي عطاالله الجمل وعبد الله عبد الرّزاق، تاريخ أوروبا من النّهضة حتّى الحرب الباردة، مرجع سابق، ص75،76.
[4] لبنى رياض عبد المجيد الرّفاعي ومحمّد حمزة حسين الدّليمي، تاريخ أوروبا في عصر النّهضة، مرجع سابق، ص191-193.
[5] عثمان نويّة، المفكّرون من سقراط إلى سارتر، مرجع سابق، ص184.

وبما أنّ لوك كان مقرّبًا من اللّورد، فقد منحه عدّة مناصب سياسيّة حاول فيها لوك تجسيد فكره التّسامحيّ، والذي لجأ إليه بعدما سئم تلك الظّروف السّياسيّة والإجتماعيّة، التي تميّزت بالتّطاحن بسبب اِصطدام المصالح وتعدّد المذاهب، و«كانت الفرصة التي أُتيحت له بعد ذلك للاِشتغال بالسّياسة عمليّا حين أرسل سكرتيرًا لبعثة دبلوماسية... عام 1665 إلى حاكم برادنبج يعرضون عليه التّحالف معهم أو الوقوف على الحياد في حرب هولّنده فاِبتدأ وعيه ينفتح على أفكار جديدة لم تكن له بها خبرة من قبل.» [1]

كان لورد شافتسبري من أكثر الأشخاص كراهيّة للظّلم والعنف والاِستبداد سواء كان سياسيًّا أو دينيًّا أو غيرهما، ولقد اِنتقلت تلك الكراهيّة لجون لوك الذي أصبح فيما بعد من أعظم الشّخصيّات مدافعة عن السّلام والحرّيّة والحقوق الإنسانيّة في المجتمع الإنجليزي، فكان بذلك الرّجل السّياسيّ الشّريف[2]، «ولقد اِشتغل بالسّياسة كما اِشتغل بها فرنسيس بيكن، ولكنه كان عكس بيكن سياسيًّا شريفًا. وقد أعانه لود آشلي فعيّن في المكتب الإداري لكارولينا، إحدى مستعمرات التّاج، وشارك في إعداد دستور المستعمرة، فأبرز فيه مبادئ التّسامح السّياسيّ والإجتماعيّ والدّينيّ.»[3]، ولقد لاحظ الملك النّشاط السّياسيّ الذي قام به كل من جون لوك ولورد شافيستبري الدّاعي إلى التّحرّر، فشعر بخطورتهما على ملكه. وكمحاولة لإزاحة هذا الخطر، قام الملك بتلفيق تهمة الخيانة ونسبها للّورد آشلي الذي سُجن عدّة مراتٍ، ثمّ لاذ بالفرار إلى هولّندا حتّى مات بها. شعر لوك حينها بخطورة الوضع على حياته وما كان له إلّا أن اِتّبع طريق صديقه آشلي، فاِتّخذ هو الآخر من هولندا ملجأً له[4]، «في تلك الأثناء أحسّ لوك بأنّ موقفه في إنجلترا أصبح مهدّدًا لأنّ الشّخص الذي كان يعتمد على مساعدته وحمايته اُتّهم بالخيانة ومات فآثر أن يتّبع نفس الطّريق الذي سار فيها صديقه من قبل وهرب إلى هولّندة عام 1683 التي

[1] فاروق عبد المعطي، جون لوك من فلاسفة الإنجليز في العصر الحديث، مرجع سابق، ص08.
[2] المرجع نفسه، ص08.
[3] عثمان نويّة، المفكّرون من سقراط إلى سارتر، مرجع سابق، ص186.
[4] فاروق عبد المعطي، جون لوك من فلاسفة الإنجليز في العصر الحديث، مرجع سابق، ص09.

كان يسودها في ذلك الوقت نوع من التّسامح والحرّيّة بالنّسبة لبقيّة أجزاء أوروبا.»[1]، ولقد أُعجب جون لوك بسياسة التّسامح التي كانت تسود هولندا رغم تعدّد المذاهب والمعتقدات.

في خضمّ هذه الأحداث التي عاشها جون لوك، تبلورت لديه فكرة وجد فيها الحلّ الوحيد للخروج ببلاده من هذه الأزمات والصّراعات، تمثلت في فكرة التّسامح، فجسّدها في كتابه "رسالة في التّسامح" التي ألّفها في هولندا، «وقبل أن يقدّم لوك في الرّسالة في التّسامح فهمه النّهائي للتّسامح، غيّر منذ البحث في التّسامح (1667) رأيه جذريًّا بتبنّي التّسامح حلًّا للأزمة العقديّة والسّياسيّة الإنكليزيّة والأوروبيّة»[2]، كانت هاته الرّسالة بمثابة تنديدٍ بحقوق الإنسان وحرّيّته خاصةً الدّينيّة.

وفي عهد الملك جيمس الثّانيّ تمّ إصدار عفوٍ بحق جون لوك، «إلّا أنّ لوك رفض هذا العفو وأرسل إلى صديقه... مبيّنًا له أسباب ذلك الرّفض قائلًا أنّ العفو لا يصدر إلّا عن جريمة بينما هو لم يرتكب جريمة، لأنّ الدّفاع عن الحرّيّة لا يعتبر كذلك وفضّل البقاء في هولندة حتى يتمكّن كذلك من مواصلة كتاباته.»[3]، وبعد سنوات بدأت بوادر الثّورة ضدّ جيمس الثّاني تظهر، كانت هذه الثّورة نتيجة لِاستبداد الملك وتعصّبه للكاثوليكيّة. وفي عام 1688 كلّلت الثورة بالنّجاح وتحقق ما كان ينشده لوك، حيث تخلّصت إنجلترا من الطّغيان والحكم المتطرّف المستبدّ بتخلّصها من آخر ملوك أسرة اِستيوارت (جيمس الثّاني) الذي هرب إلى فرنسا.[4]

[1] فاروق عبد المعطي، جون لوك من فلاسفة الإنجليز في العصر الحديث، مرجع سابق، ص09.
[2] صالح مصباح، فلسفة الحداثة اللّيبيراليّة الكلاسيكيّة من هوبز إلى كانط، جداول للنّشر والتّوزيع، بيروت،2011، ص146.
[3] فاروق عبد المعطي، جون لوك من فلاسفة الإنجليز في العصر الحديث، مرجع سابق، ص10.
[4] المرجع نفسه، ص10.

المبحث الثّاني: علاقة التّسامح بفكر جون لوك السّياسيّ

قسّم لوك الحالة الإنسانيّة إلى حالة طبيعيّة وأخرى مدنيّة، طرح من خلالها آراءه ونظريّته السّياسيّة التي تبنّاها، والتي تشكّلت من خلال تنشئته الإجتماعيّة وكذا الظّروف السّياسيّة التي عايشها آنذاك.

وكما ذكرنا سابقًا، أنّ لوك إقترح فكرة التّسامح من أجل بناء مجتمع سياسي متسامح، هذه الفكرة نجدها ضمنيّة ومتأصّلة حين تحدّث عن الحالة الطّبيعيّة للبشر التي سبقت حالته السّياسّة أو المدنية.

1) فكرة التّسامح والحالة الطّبيعيّة:

يُعتبر جون لوك من فلاسفة العقد الإجتماعي، الذين آمنوا بفكرة أنّ البشر وقبل تعاقدهم مع السّلطة الحاكمة بغية حماية حياتهم وحرّياتهم وممتلكاتهم وضمان عيشهم الكريم، كانوا يحيون حياة طبيعيّة، إلّا أنه قد إختلف عنهم في وصفه لهذه الحالة، فقد رأى أنّها حياة مثاليّة يشيع فيها السّلام والتّعايش بين النّاس[1]، يقول جون لوك في كتابه الشهير في الحكم المدنيّ: «ولكي ندرك طبيعة السّلطة السياسيّة إدراكًا صحيحًا ونستنبطها من مصدرها الأصلي ينبغي لنا أن نفحص عن الوضع الطّبيعيّ الذي نجد البشر عليه: وهو وضع من الحرّيّة التّامة في القيام بأعمالهم والتّصرّف بأملاكهم وبذواتهم كما يرتأون، ضمن إطار سنّة الطبيعة وحدها.»[2]، وهذا يخالف تمامًا ما جاء به هوبز، والذي أقرّ بأنّ الحياة الطبيعيّة حالة من الصّراع والحرب واللّاسلام، حيث القويّ فيها يأكل الضّعيف[3]

ويقصد لوك بسنّة الطّبيعة؛ تلك القوانين الطّبيعيّة التي يعقلها ويؤمن بها ويسير وفقها الإنسان، والّتي من خلالها تُحفظ الحرّيّات والممتلكات لهذا«لا ينبغي لأيّ فرد أنّ يلحق ضّررًا

[1] راوية عبد المنعم عبّاس، جون لوك إمام الفلسفة التّجريبيّة، مرجع سابق، ص106.
[2] جون لوك، في الحكم المدنيّ، ت ماجد فخري، اللّجنة الدّوليّة لترجمة الرّوائع، بيروت، 1959، ص139.
[3] مهدي محفوظ، إتّجاهات الفكر السّياسيّ في العصر الحديث، مجد المؤسسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ط2، لبنان، 2007، ص91.

بغيره. لا بحياته ولا بحرّيّته ولا في ملكيّته طالما أنّهم جميعًا متساوون ومستقلّون.»[1]، بهذا يمكننا القول بأنّ الحالة الطّبيعيّة عند جون لوك هي حالة اِجتماعيّة بامتياز، فهي ليست حياة الفوضى أو ليس لديها ضابط لأفعال البشر وتصرّفاتهم، بل إنّ أساسها القانون الطّبيعيّ الفطريّ القائم على اِحترام الفرد للحقوق الطّبيعيّة، الّتي يمكننا اِختصارها في: الحقّ في الحياة والحرّيّة والملكيّة وكذا الحق في المساواة، وهذه الحقوق يرى لوك بأنّها تفضي إلى فضيلة التّسامح إذ ما تم تحقيقها، خاصة الحقّ في الحرّيّة الذي هو أساس العقد الاِجتماعيّ لديه.

لقد تكلم فيلسوفنا عن هاته الحقوق في الحالة الطّبيعيّة، ورأى بأنّ الإنسان كان يؤمن بها ويسير وفقها رغم أنّه لم يعرف بعد ما يسمى بالمجتمع المدني أو المجتمع السّياسيّ.

أ- الحقّ في الحياة:

تعدّ الدّيانة المسيحيّة من الدّيانات السّماويّة التي تقدس الإنسان وروحه، وباِعتبار أنّ جون لوك مؤمن بالمسيحيّة، نجده قد اِستمدّ من تعاليمها الحقّ في الحياة، لهذا تعدّ الحياة من بين الحقوق المقدّسة لديه، والفرد عنده مسؤولٌ أمام ذاته أولًا ثمّ القانون الطّبيعيّ ثانيًا من أجل الحفاظ على حياته.

وبما أنّ لوك قد وصف الإنسان في حالته الأولى بأنّه محبٌّ الحياة والخير للآخر _ وهذا تمامًا ما تنصّ عليه القوانين الطبيعيّة _ فينبغي عليه أن لا يلحق الضّرر لا بحياته ولا بحياة غيره، ويقول جون لوك: «ومع أنّ هذا الطّور الطّبيعي طورٌ من الحرّيّة، فهو ليس طورًا من الإباحيّة. فالإنسان في هذا الطّور يتمتع بحرّيّة التّصرّف بشخصه وممتلكاته، إلّا أنّه لا يتمتّع بحرّيّة القضاء على حياته، بل على حياة المخلوقات التي يملكها.»[2]، إنّ قوله هذا يعني؛ أنّ الإنسان حتّى وإن تمتّع بحقّ الحرّيّة فهذا لا يخوّله للتّعدّي على الحقّ في الحياة، سواء على حياته أو على حياة الآخرين.

[1] مهدي محفوظ، اِتّجاهات الفكر السّياسيّ في العصر الحديث، مرجع سابق، ص91.
[2] جون لوك، في الحكم المدنيّ، مصدر سابق، ص140.

يستأنف لوك حديثه عن هذا الحقّ حيث يقول: «فينبغي أن لا يوقع أحد منهم ضررًا بحياة صاحبه أو صحّته... فقد اِستحال أن يكون واحدنا مسخّرًا للآخر تسخيرًا يخوّله أن يقضي عليه، كما لو كان قد خُلق من أجل أغراضه ومآربه.»[1]، لكن هناك سؤال وجيه هو: "ماذا لو تعرّض الفرد في الحالة الطّبيعيّة للإعتداء على حياته؟"، هذه المسألة لم يغفل عنها لوك، فنجده قد أجاز القصاص من أجل الحدِّ من هذه الإعتداءات التي تعدّ خرقًا للقانون الطّبيعي، وكذا من أجل الحفاظ على الحياة وفي هذا يقول جون لوك: «فلا يسلب حياة اِمرئ آخر أو يلحق بها الأذى أو يسيء إلى ما من شأنه أن يؤدّي إلى حفظها أو إلى حرّيّته أو صحّته أو جسده أو أملاكه، إلّا في معرض الإقتصاص من مجرم.»[2]، فلماذا؟ وكيف؟ يجيب لوك: «لكي يرتدع كلّ اِمرئ عن التّعدّي على حقوق الآخرين أو إيقاع الضرر بهم وتُحترم السّنّة الطّبيعيّة التي ترمي إلى إقرار السّلام وبقاء النّوع البشريّ، فقد تُرك أمر تنفيذ السّنّة الطّبيعيّة هذه، إبّان ذلك الطّور لكل اِمرئ بمفرده، فكان له الحقّ بمعاقبة الخارجين عن تلك السّنّة إلى حدّ يحول دون خرقها.»[3]، لكن ما نوّه إليه جون لوك هو عدم المبالغة في إقامة هذا العقاب، فلا يجب على الفرد أن يستخدم سلطته في القصاص بحسب أهوائه، بل يجب أن يكون حكمه عادلًا يتناسب والإِعتداء الذي قام به، كذلك حسب ما يمليه عليه ضميره، وانطلاقًا من هذا يمكن لكلّ إنسان أن يكون القاضي المنفّذ لقوانين الطّبيعة.[4]

ب- الحقّ في المساواة:

يصف لوك الحالة الأولى بأنّها «وضع من المساواة»[5]، فهي إحدى القواعد التي ترتكز عليها هذه المرحلة، وكذا إحدى قوانينها، فالنّاس عند لوك كانوا «يعيشون معًا في سلامٍ وودٍّ في العصور الأولى للبشريّة، قبل ظهور المجتمع المدنيّ ويستمتعون بالحرّيّة الطّبيعيّة، والمساواة في

[1] جون لوك، في الحكم المدنيّ، مصدر سابق ، ص140،141.
[2] المصدر نفسه، ص141.
[3] المصدر نفسه، ص141.
[4] أميرة حلمي مطر، الفلسفة السّياسيّة من أفلاطون إلى ماركس، دار المعارف، ط5، القاهرة، 1995، ص67.
[5] جون لوك، في الحكم المدنيّ، مصدر سابق، ص139.

مناخ من السّلام، والإرادة الخيّرة، في ظلّ فائدة حكم قانون الطّبيعة.»[1]، وهذا يدلّ؛ على أن جميع الأفراد يعيشون حياة السِّلم والتّساوي ما داموا يخضعون كلهم دون اِستثناء لتلك القوانين والسّنن الطّبيعيّة، يستشهد لوك بمقولة من كتاب "قوانين الدّولة الكنيسة" للفيلسوف السّياسيّ الإنجليزيّ Judicious Hooker (1553–1600) في قوله[2]: «إنّ هذه المساواة بين البشر من الأمور البديهيّة التي لا يتطرّق إليها شكٌّ. ولذلك يجعلها الأساس الذي تقوم عليه فريضة التّحاب بين البشر، وهي فريضة تبنى عليها واجبات الواحد منهم نحو الآخر ويستنبط منها قواعد العدالة والمحبّة الكبرى.»[3]، وهذا يعني أنّ المساواة من الحقوق الّتي لا يمكن أن يختلف فيها إثنان، فهي شرط لإدراك المرء لواجباته ومن ثمّ تحقيقٌ للعدالة لضمان ذلك التّحاب بين البشر، وهذا بالتّحديد ما أراد أن يؤكّد عليه لوك، حيث قال: «فإذا كانت سجيّتي أن أصبو إلى إصابة الخير على يد كلّ اِمرئ بمقدار ما يرغب فيه هو من أجل ذاته، فكيف أرجو أن تلبّى رغبتي تلك ولو بعض التّلبيّة، ما لم أعمل على تلبيّة الرّغبة المماثلة التي تختلج بها صدور أقراني ولا شكّ اِختلاجًا ضعيفًا، ما داموا من جبلتي وطينتي؟ ... ولا يجهل أحدٌ القواعد والقوانين المختلفة التي يستنبطها العقل الطّبيعيّ من هذا التّساوي بيننا وبين من هم منّا بمثابة ذواتنا، من أجل تنظيم الحياة.»[4]، فالنّاس يولودون متساوين أحرارًا لا يختلف الواحد منهم عن الآخر ما دام أصلهم واحد، فلا الجنس ولا المعتقد ولا الدّماء أو غيرها، معيارًا للتّفاضل بين البشر.[5]

إذن، المساواة من الحقوق والمبادئ الضّامنة لفضيلة التّسامح والتّعايش والتّعاون في الطّور الأوّل الذي عرفه الإنسان، والحقّ في «المساواة بين النّاس منحته الطّبيعة لهم هو القاعدة الأساسيّة لمشاعر المؤاخاة والاِحسان، والقيام بالواجبات وحبّ الخير وتبادل المنافع»[6].

---

[1] ليوشتراوس وجوزيف كرويسي، تاريخ الفلسفة السّياسيّة، تر: محمد سيّد أحمد، المجلس الأعلى للثّقافة، ج2، القاهرة، 2005، ص10.

[2] جون لوك، في الحكم المدنيّ، مصدر سابق، ص139

[3] المصدر نفسه، ص140،139.

[4] المصدر نفسه، ص140.

[5] علي عبد المعطى، تيّارات فلسفيّة حديثة، مرجع سابق، ص123.

[6] راوية عبد المنعم عبّاس، جون لوك إمام الفلسفة التّجريبيّة، مرجع سابق، ص106.

ج- الحقّ في الحرّيّة:

إنّ الحقّ في الحرّيّة حسب لوك هو كذلك من الحقوق التي سنّتها قوانين الطّبيعة، والذي عرفه الإنسان في الحالة الأولى، «فحسب لوك، تمثل حالة الطّبيعة حالة الحرّيّة الكاملة.»[1]

في الوقت الذي يصف فيه لوك الحالة الطّبيعيّة، كان يؤكّد على الحرّيّة كحقٍّ شرعيٍّ للإنسان، «وقد ذهب إلى القول بأنّ النّاس يولدون أحرارًا متساويين.»[2]، فلا يمكن تصور حالة طبيعيّة أولى من غير أن تكون العلاقة بين الأفراد علاقة حرّيّة، «ويذهب إلى أنّ للإنسان حقوقًا مطلقةً لا يخلقها المجتمع، وأنّ حال الطّبيعة تقوم في الحرّيّة، أي أنّ العلاقة الطّبيعيّة بين النّاس علاقة كائن حرّ بكائن حرٍّ.»[3]، لكن جون لوك يعتبر التّصرّفات الخارجة عن اِطار القانون الطّبيعي، هي سلوكات تمسّ بحقوق وحرّيّة الآخرين، لهذا أقام حقّ حرّيّة الفرد ضمن القانون الطّبيعيّ.

ولقد عرّف جون لوك الحرّيّة فقال: «تعني حرّيّة الإنسان الطّبيعيّة اِستقلاله عن أيّ سلطةٍ عليا على الأرض، وعدم خضوعه لإرادة بشريّة قط أو لسلطته التّشريعيّة، ورضوخه للسّنّة الطبيعيّة وحسب.»[4]، وهذا يعني أنّ الحرّيّة حسب لوك تتحقّق عند اِحترام الأفراد لقوانين الطّبيعة وتطبيقهم لها، فرغم أنّ الحالة الطّبيعيّة هي حالة من الحرّيّة، إلّا أنّها ليست حرّيّة مطلقة ليست لها ضوابط لردع النّاس.[5]

لكن السؤال المهمّ هنا هو: ما دام البشر يعيشون حياة يسودها هذا التّحاب والتّعايش والتّسامح، وجميع الحقوق مكفولة ومحفوظة في الحالة الطّبيعيّة، فما الذي جعل أفرادها يرغبون في الاِنتقال إلى الحالة السّياسيّة المدنيّة؟

---

[1] ستفن ديلو، التّفيكر السّياسي والنّظريّة السّياسيّة والمجتمع المدني، ت ربيع وهبة، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة، 2003، ص277.

[2] أميرة حلمي مطر، الفلسفة السّياسيّة من أفلاطون إلى ماركس، مرجع سابق، ص66.

[3] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف المصريّة، القاهرة، (د.ت)، ص143.

[4] جون لوك، في الحكم المدنيّ، مصدر سابق، ص150.

[5] ليوشتراوس وجوزيف كرويسي، تاريخ الفلسفة السّياسيّة، مرجع سابق، 09.

لقد حاول لوك أن يقول «وإن كان النّاس في حالة الطّبيعة يعيشون في حالة سلامٍ وحرّيّةٍ ومساواةٍ فإنّهم يبقون دائمًا عرضةً لبعض المساوئ الّتي يمكن أن تتفاقم وتهدّد مصالحهم العامّة. وهكذا فإنّ الأفراد عندما فضّلوا الإنتقال من حالة الطّبيعة إلى المجتمع السّياسيّ المدنيّ، لكي يكونوا على حالٍ أحسن من حالة الطّبيعة.»[1]

إذن، فإنّ هذا الإنتقال هو من أجل سدّ ثغرات وعيوب الحالة الأولى للإنسان، وضمان تلك الحقوق الطبيعيّة من خلال إبرام عقدٍ اِجتماعي يحيلنا إلى مجتمعٍ مدنيٍّ سياسيٍّ، يكون فيه الشّعب مصدرًا للسلطة.

[1] مهدي محفوظ، اِتّجاهات الفكر السّياسيّ في العصر الحديث، مرجع سابق، ص92،91.

2) التّسامح والمجتمع المدني:

بعدما أقرّ لوك بوجود حالة طبيعيّة للإنسان، وبوجود عيوب فيها يجب تجاوّزها، طرح نظريّته القائمة على عقد اِجتماعي يتمّ بموجبه اِنتقال الأفراد من مجتمع تحكمه قوانين الطبيعة، إلى مجتمع مدنيّ، «يقول لنا لوك أنّ الحكومة هي دواء للمضايقات التي تنشأ في حالة الطّبيعة.»[1]، يعني أنّ الحلّ يكمن في إقامة دولة وحكومة تؤسّس على «القوانين والقضاة والسّلطة المنفّذة؛ وهذا مايأتيهم به الحكم المدنيّ. فالسّلطة هي إذن عبارة عن وديعة... والحاكمون هم إداريّون في خدمة الجماعة، وتقوم مهمّتهم على توفير الرّفاه والإزدهار.»[2]، ويتمّ هذا الاِنتقال عن طريق اِتّفاق بين الشّعب والحاكم، «ويرى لوك أنّ الأفراد يختارون الحاكم عند إقامتهم للسّلطة ويجعلونه طرفًا في التّعاقد. وبذلك فإنّ العقد يكون قد أبرم بين طرفين: الهيئة الحاكمة من جهة وأفراد من جهة أخرى.»[3]، ويقام هذا العقد برضى من الأفراد، فلا يتصوّر لوك إبرام عقد ينتقل من خلاله الفرد من حياة الحرّيّة والمساواة والحقوق، إلى حالة السّلطة السّياسيّة المطلقة. ومن ثمّ فإنّ رضى وقَبول أفراد المجتمع بهذا العقد هو الشّرط الأساسيّ له.

ينصّ هذا العقد على تنازل الشّعب عن جزءٍ من حقوقه للسّلطة والحاكم، وهذا بدوره مسؤول أمامهم، من خلال تنظيم حياتهم وحفظ حقوقهم الأخرى الّتي لا تزال بحوزتهم والّتي منحتهم إياها حياة الطّبيعة الأولى وقوانينها، يقول في ذلك جون لوك: «_ لما كان البشر _ كما تقدّم _ أحرارًا ومتساوين مستقلّين بالطّبع، إستحال تحويل أيّ إنسان عن هذا الوضع وإكراهه على الخضوع لسلطة إنسان آخر دون موافقته، الّتي يُعرِب عنها بالاِلتفاق مع أقرانه على تأليف جماعة واحدة والإنضمام إليها، كي يتسنّى لهم أن يعيشوا معًا عيشة رخيّة آمنة مسالمة.»[4]

---

[1] برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربيّة، تر: محمد فتحي الشّنطي، مطابع الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1977، ص208.
[2] جان توشار، تاريخ الأفكار السّياسيّة من عصر النّهضة إلى عصر الأنوار، تر: ناجي الدراوشة، دار التّكوين للتّأليف والتّرجمة والنّشر، ج2، 2010، ص509.
[3] محمد نصر مهنا، علوم السّياسة الأصول والنّظريّات، مؤسّسة شباب الجامعة، الإسكندريّة، 2009، ص99،98.
[4] جون لوك، في الحكم المدنيّ، مصدر سابق، ص195.

بهذا قدّم لنا لوك مجتمعًا سياسيًّا تحكمه قوانين وضعيّة و«مفهومًا عن الحكومة محدودة السّلطة من أجل حماية المبدأ الإجتماعي العام المتعلق بضرورة حماية حقوق الجميع... ولكن يظلّ هناك مقاربة أخرى لحماية الحقوق عند لوك. فقد إشتملت رؤيته للمجتمع المدني على حيّز ما، خارج الهيكل الرّسمي للحكومة يتمتّع فيه الأفراد بحماية من أيّ خرق أو إنتهاك لحقوقهم سواء من الآخرين أو من الحكومة، والعنصر المهمّ الذي ساعد في خلق هذا المستوى أو البعد من المجتمع المدني يتمثّل في فضيلة التّسامح.»[1]، وعليه فالغاية الأسمى لهذا التّجمّع هو التّسامح، فهذا الأخير يعتبره لوك ركيزة للمجتمع المدني النّاجح قبل أن يجعل منه غايةً له.

صحيح أنّ لوك تكلّم عن فضيلة التّسامح في جانبها الدّينيّ، لكن ما يجب التّنويه له هو أنّ للمجتمع المدني أو السّلطة السّياسيّة دور في تحقيق هذا التّسامح، فلوك عاش في مجتمع سلطته السّياسيّة مطلقة متعصّبة دينيًّا، لم تمنح لأفراد شعبها حرّيّة الإعتقاد وهذا بالتّحديد ما عارضه، لأنّ الحقّ في الإعتقاد هو جزء من حرّيّات الأفراد، والحرّيّة حقّ ومطلب ضمنته قوانين الطّبيعة قبل أن تضمنه القوانين السّياسيّة، بل هو حقٌّ وجب أن تكفله هاته الأخيرة. وبما أنّ جون لوك عانى كثيرًا من طرف سلطة بلاده الحاكمة بسبب إختلاف توجهه الدّينيّ العقائدي، أراد أن يوجد حدًّا لهذا الوضع عن طريق الفصل بين سلطتين بارزتين آنذاك، إحدهما دينيّة والأخرى مدنيّة، من خلال توضيح وتحديد مهام كلتا السّلطتين، لهذا أُعتبِر «فكر لوك السّياسي فكر علمانيّ بصورة جذريّة. فهو يفصل فصلًا صارمًا الزّمنيّ (الدّنيويّ) عن الرّوحيّ (الدّينيّ).»[2]، إنّ هذا الفصل الّذي نادى به لوك يرمي إلى حماية التّعدّديّة الدينيّة، وهذه الحماية تفضي بالإنسان إلى أن يكون حرًّا في إختيار مذهبه الخاص والإعتقاد الّذي آمن وإقتنع به عقله وبهذا ضمن جون لوك للأفراد إحدى جوانب الحرّيّات في ظلّ القانون الوضعيّ (حريّة الإعتقاد)، والّذي رأى بأنّها

[1] ستفن ديلو، التّفيكر السّياسي والنّظريّة السّياسيّة والمجتمع المدني، مرجع سابق، ص296.
[2] جان توشار، تاريخ الأفكار السّياسيّة من عصر النّهضة إلى عصر الأنوار، مرجع سابق، ص510.

ما هي إلّا نتيجة لفضيلة التّسامح الّتي ساهمت في إقرار السّلام والإستقرار، ومذهب لوك في التّسامح «يمثّل فضيلة مدنيّة من شأنها أن تقلّل من الصّراع على الدّين.»[1]

إذن، كيف جسّد لنا جون لوك مذهبه في التّسامح؟

لقد ضمّن لوك الحلّ في كتابه "رسالة في التّسامح"، حين ميّز لنا بين مهام كلا من السّلطة الدّينيّة والمدنيّة كما سبق لنا الذّكر، فرأى بأنّهما وُضِعا لوظائف تختلف فيها الأولى عن الثّانيّة.[2]

أ- السّلطة الدّينيّة:

يبدأ لوك في مطلع رسالته بتعريف التّسامح، جاعلًا منه ميزة للدّين المسيحيّ الحقّ قائلًا: «أنظر إلى التّسامح على أنّه العلامة المميّزة للكنيسة الحقّ»[3]، تعدّ هذه العبارة إختصارًا لجزءٍ كبيرٍ من رسالته، والذي أراد فيه تبيان أنّه لا يوجد أحد في هذا العالم يستطيع أن يقرّر ما هو الدّين الحقّ وما هو الدين الباطل، وأنّ ما نراه من تباهٍ بالأماكن والألقاب العريقة والممارسات الدييّنيّة العظيمة، وتفاخرٍ واِعتقادٍ جازمٍ بأنّه على الدّين الحقّ، ما هي إلّا ضروبٌ من الوثوقيّة والتّعصّب والتّسلّط. فلو سمح الإنسان لنفسه بأن يحكم على عقيدة غيره وديانتهم، فهو في هذه الحالة يهيئ لجوٍّ من العنف والصّراع لا محال.[4]

ويفترض لوك بأنّه لو كان الإنسان مسؤولٌ أمام الآخر بأن يعظه ويوجّهه، وكان هذا المسؤول لا يتّصف بالتّواضع وحبّ الخير للغير ولو كانوا على غير ملّته، فإنّه ليس بمسيحيّ ولا يمتّ للمسيحيّة المعقولة الحقّ بصلة، «أمّا وظيفة الدّين الحقّ فهي مختلفةً تمامًا. فالدّين الحقّ لم يتأسس من أجل ممارسة الطّقوس ولا من أجل الحصول على سلطة كنسيّة، ولا من أجل ممارسة القهر، ولكن من أجل تنظيم حياة البشر اِستنادًا إلى قواعد الفضيلة والتّقوى.»[5]

[1] ستفن ديلو، التّفيكر السّياسي والنّظريّة السّياسيّة والمجتمع المدني، مرجع سابق، ص300.
[2] المرجع نفسه، ص296.
[3] جون لوك، رسالة في التسامح، مصدر سابق، ص19.
[4] المصدر نفسه، ص19.
[5] المصدر نفسه، ص19.

لقد وجّه لوك نقدًا لاذعًا لآباء الكنيسة، فرأى بأنّ هؤلاء قد اِستخدموا الدّين والمؤسّسات الكنائسيّة لأغراضٍ خاصّةٍ ومصالحٍ شخصيّةٍ تخدمهم على حساب أفراد المجتمع، الّذين أُضطهدوا وعُذّبوا من طرفهم باِسم الدّين والدّفاع عنه، وكذا بدعوى خلاص النّفوس البشريّة، في حين أنّ آباء الكنيسة والقساوسة من أكثر النّاس ممارسةً للرّذائل واِتّباعًا للشّهوات، يقول جون لوك: «فكلّ إنسان يحمل شعار المسيح ينبغي عليه، أوّلًا وقبل كلّ شيء، أن يشنّ حربًا على شهواته ورذائله. وذلك لأنّه من العبث أن تكون مسيحيّا دون أن تكون حياتك مقدّسة وأن يكون سلوكك طاهرًا، وأن تكون رقيقًا ومتواضعًا...فمن الصّعب على إنسان لا يكترث بخلاصه الرّوحيّ أن يقنعني باِهتمامه البالغ بخلاصي، فأمر محالٌ على أولئك الذين تخلو قلوبهم من الدّيانة المسيحيّة أن يكرّسوا أنفسهم بإخلاصٍ وحميّةٍ لتحويل الآخرين إلى المسيحيّة.»[1]

ذكر لوك في رسالته أنّ التّسامح الذي عُرف بين المختلفين في العقائد يتّفق تمامًا مع ما جاء به العهد الجديد، لهذا وجب على أولئك المبشّرين أن يجتثّوا كما قال لوك، تلك اللاأخلاقيات من زنا ونجاسة واِنحلال بدل من أن يحاربوا بقسوة وتعصّب ذلك التّعدد في الملل والمعتقدات، وإنّ أيّ تسويغ لاِستعمال العنف والسّلاح من أجل دفع النّاس لتغيير عقائدهم وإجبارهم لاِتباع ملّة واحدة، لا يعدّ دافعه إقامة كنيسة مسيحيّة حقيقيّة تتوافق وتعاليم المسيح، بل العكس من ذلك تمامًا، فهم بهذا يرمون إلى حشد عدد كبير من النّاس في صفوفهم لزيادة نفوذهم، يقول جون لوك: «وأن يجبرهم على الاِعتراف بما لا يؤمنون بدعوى أنّ عقيدتهم كاذبة، وأنّ طقوسهم لا يسمح بها العهد الجديد؛ إذا حدث ذلك فمن المؤكّد أنّ مثل هذا الإنسان ينشد تجمّعًا ضخمًا يشاركه نفس العقيدة. ولكن أن يكون مقصده تأسيس كنيسةٍ مسيحيّةٍ حقيقيّةٍ فهذا ما لا يصدّقه عقل. ولهذا ليس من المستغرب على هؤلاء الّذين لا يدافعون عن اِنتصار الدّين الحقّ وعن كنيسة الله أن يستخدموا الأسلحة الّتي لا تنتسب إلى النّضال المسيحيّ.»[2]، واِنطلاقًا من هذا أراد لوك أن يبيّن لنا ماهيّة الكنيسة وماهو دورها ووظيفتها الفعليّة، وبالاِستناد لرسالته في التّسامح

[1] جون لوك، رسالة في التسامح، مصدر سابق، ص19،20.
[2] المصدر نفسه، ص22.

نستنتج أنّ الكنيسة هي وسط اِجتماعيّ حرّ أو هي «جماعة حرّة مؤلفة من أناس اِجتمعوا بإرادتهم لعبادة الله علنًا على النّحو الذي يرونه مقبولًا عنده وكفيلًا بتحصيل النّجاة.»[1]، ويؤكّد جون لوك على أنّ الكنيسة اِجتماع حرّ وأنّ الإرتباط بها نابع من إرادة حرّة للفرد، لأنّه «ليس ثمّة إنسان ملتزم بطبيعته بكنيسة معيّنة أو بطائفة معيّنة، ولكنّه ينضمّ طواعيّةً إلى كنيسة ما يعتقد أنّه يمارس فيها العقيدة الحقّة والعبادة المقبولة من الله، وحيث إنّ الدّافع الوحيد وراء اِنضمامه إلى مثل هذه الكنيسة هو أمله في الخلاص فإنّ هذا الدّافع أيضًا هو علّة اِستمراره فيها.»[2] فكما أعطى لوك الحرّيّة للفرد في الاِنضمام إلى كنيسة ما، نجده كذلك يعطيه كامل حرّيّته في مغادرتها والتّخلي عنها في حالة عدم إقتناعه بها، أو تبيّن له أنّ قوانينها متناقضة.

بيّن لوك أنّ الكنيسة مؤسسة دينيّة كباقي المؤسّسات، يجب أن يكون لها قوانين تنظّمها وتضبط مجتمعها وسير شؤونها لضمان عدم تفكّكها، هذه القوانين تصدر عنِ اِتّفاق جميع أعضائها، وبهذا تكون الكنيسة محدودة السّلطة أي أنّ القوانين الّتي سنّتها كنيسة معيّنة تطبّق فقط على أعضائها ومن اِنضمّوا إليها، لا على باقي أفراد المجتمع الآخرين. ولقد أكّد جون لوك على تهذيب أساليب ممارسة هذه القوانين، فبدل الاِضطهاد والعنف واِستخدام السّلاح والقوّة، دعا إلى النّصح والوعظ والتّوجيه، فإذا كان هذا السّبيل لا يجدي نفعًا لهدايتهم، هنا يتمّ عزلهم عن هذا المجتمع الكنسيّ. وقرار العزل هذا يعده لوك أقصى ما يمكنهم فعله معه، فلا يمكنهم تعدّي هذا العقاب إلى المساس بحياته أو إلحاق الضّرر بجسده أو تجريده من ممتلكاته أو أي حقٍّ من حقوقه المدنيّة فهذا الأمر ليس من مهام الكنيسة وأساقفتها.[3]

قدّما لنا لوك إجابات بعد أن تساءل عن إمتداد ومتطلّبات واجب التّسامح يمكن أن نختصرها كالآتي:

---

[1] كرستين عماد سامي داود، "التّسامح وعلمنة المجتمع عند جون لوك"، مجلة كلّيّة التّربيّة في العلوم الإنسانيّة والأدبيّة، وحدة النّشر العلمي لكليّة التّربيّة، جامعة عين شمس، م 23، مصر، ص12.

[2] جون لوك، رسالة في التّسامح، مصدر سابق، ص27.

[3] المصدر نفسه، ص28

لا يحقّ لأيّ كنيسة بحكم واجب التّسامح إرغام أفرادها للبقاء في مجتمعها، وفي حالة إختراق قوانينها من طرف أحد المنضمّين إليها، يجب أن لا يتجاوز العقاب إلى حدّ المساس به ولو بكلمة ينجم عنها ضررًا لحياته أو لحقوقه.[1]

إنّ ما يملكه الشّخص من حقوق وإمتيازات وخيرات دنيويّة لا يمكن للدّين أن يطالها أو يقوم شخص بالتّعدّي عليه، لا من أجل شيء، فقط لأنّه ينتمي إلى كنيسة مخالفة لكنيسته أو لدين غير دينه _ نلاحظ هنا أنّ دائرة التّسامح عند لوك بدأت تتسع لتشمل حتى الّذين ينتمون لديانات أخرى غير المسيحيّة _ فالتّسامح مع هؤلاء من الوصايا الّتي وردت في الإنجيل، وأنّه لا فضل لكنيسة على أخرى، حتى وإن كان ينتمي الحاكم إلى إحدى هاته الكنائس، فلا يضيف لها شيء ولا ينقص من الكنائس الأخرى شيء، لأنّه لا مجال لتداخل بين الوظائف الدّينيّة والمدنيّة، وإستنادًا لهذا فلا يحقّ للأفراد ولا للكنائس ولا للحكومة الإعتداء على الممتلكات والحقوق المدنيّة بإسم الدّين، والذين يرون عكس ذلك فَهُمْ المسؤولون عن زرع بذور النّزاعات والحروب والكراهيّة والسّطو والإنتهاك بين البشريّة، فلا الشّعور بالأمن والسّلام موجود، ولا علاقات الصّداقة والمحبّة والتّسامح بين النّاس ممكنة، ما دام هؤلاء يتّخذون من القوّة والرّدع والقتل وجميع أنواع الإضطهاد والتّعسّف لنشر تعاليم المسيح، الذي دعا إلى الحسن والسّلام والتّسامح والصّفح.[2]

ثمّ خصّ لوك شيوخ الكنائس والأساقفة والباباوات أو أيّ كانت رتبته الكنسيّة، بتوجيه أوجب فيه عدم المساس بحرّيّة الإنسان، وعلى الذين يزعمون بأنّهم رسل وأنّهم مكلّفون بنقل تعاليمهم أن يكونوا دائمي التّذكير بفضل خلق التّسامح والحرص على السّلام والمبادرة الخيّرة إتجاه إخوانهم من بني البشر، سواء كانوا متبعين لطريق الإيمان أو الظّالين عنه وحتى المختلفين في النّحل، وعلى الذين جعلوا من أنفسهم وسائط بين الرّسل وأفراد المجتمع لتبليغ رسائلهم، أن تعمّم

[1] جون لوك، رسالة في التّسامح، مصدر سابق، ص30.
[2] المصدر نفسه، ص31.

موعظتهم على سائر فئات المجتمع المدنيّ من جنود وحكّام وغيرهم[1]، «وأن يحاولوا جاهدين في دأبٍ تليين الحمية والكراهيّة الّتي تشعلها غيرته على ملّته»[2]

وعليه من هنا نفهم أنّ لوك أراد أن يقول أنّه لا إكراه في الدّين، فمسألة الإِعتقاد والدين هي راجعة لإرادة الفرد الحرّة، وأنّه ليس من حقّ الكنيسة التّدخل في معتقده ولا تهديده بحرمانه من حقوقه المدنيّة، لأنّه ليس من مهامها أن تتدخّل في الأمور الدّنيويّة، والّتي هي من حقّ السّلطة المدنيّة.

ب- السّلطة المدنيّة:

قدم لوك تعريفًا للدّولة فقال: «يبدو لي أنّ الدّولة مجتمع من البشر يتشكّل بهدف توفير الخيرات المدنيّة والحفاظ عليها.»[3]، تحيل هذه العبارة إلى أنّ الدّولة تشكّلت بعد أن إتّفق البشر على ذلك، وغايتهم في إقامة الدّولة هو المحافظة على خيراتهم وحقوقهم الّتي جُبِلوا عليها في حالة الطّبيعة، من «الحياة، والحرّيّة، والصّحّة، وراحة الجسم، بالإضافة إلى إمتلاك الأشياء مثل المال، والأرض، والبيوت، والأثاث، وما شابه ذلك.»[4]، إذن فوظيفة الدّولة قد حدّدها لوك في حماية حقوق وممتلكات جميع الأفراد من طرف الحاكم المدنيّ، من خلال إِتّباعه لنظام حُكمٍ عادلٍ يسير عليه الجميع دون إِستثناء، وكذلك فرض عقوبات على كلّ شخصٍ سوّلت له نفسه الإِنتهاك والتّعدّي على حقوق وممتلكات غيره بحرمانه من حقوقه المدنيّة. إنّ مثل هذا العقاب يراه لوك جدّ مشروعٍ لردع أولئك الّذين أرادوا خرق القوانين الّتي تأسّس عليها المجتمع المدنيّ أو الدّولة، فالحاكم له كلّ الصّلاحيات أن يقيم أيّ عقاب يراه مناسبًا من أجل الحفاظ على الحقوق الّتي إئتمنها الشعب لديه، وهذا يعني أنّ تلك الصّلاحيات قد إِستمدّها الحاكم من شعبه. وعليه يمكننا القول بأنّ سلطة الدّولة وضعت بغية الحفاظ على حقوق الرّعايا، في المقابل يجب على الأفراد إِحترام تلك القوانين الصّادرة عن السّلطة الحاكمة، فلا يمكن لهاته الأخيرة أن تتعدّى

[1] جون لوك، رسالة في التّسامح، مصدر سابق36.
[2] المصدر نفسه، ص37.
[3] المصدر نفسه، ص23.
[4] المصدر نفسه، ص23.

لوظيفة أخرى أو مهامٍ أخرى، كالإنشغال بمسألة خلاص الأنفس[1]، بهذا «سيقدّم لوك تصوّرًا علمانيًّا للدّولة بحصر مهمّتها في مجرّد تصريف الشّؤون الدّنيويّة لمنظوريها أي حياتهم وحرّيّتهم وثرواتهم، وذلك يعني أنّ الرّب لم يكلّف الدّولة برعاية نفوس الرّعايا.»[2]

ولقد اِستند جون لوك إلى إعتبارات لبرهنة طرحه هذا، يقول: «الإعتبار الأوّل: لأنّ خلاص النّفوس ليس من شأن الحاكم المدني أو أيّ إنسان آخر، ذلك أنّ الحاكم ليس مفوّض من الله لخلاص نفوس البشر، وأنّ الله لم يكلّف أيّ إنسان بذلك»[3]، إنّ من غير المعقول أن يمنح الله للسّلطة الحاكمة مهمّة إنقاذ وخلاص روح الفرد، فالإنسان وحده أدرى من غيره بمصلحته، خاصة وإن تعلق الأمر بالجانب الدّينيّ ومسألة الخلاص. وللفرد كلّ الحرّيّة في تبنّي أو الإِعتقاد بالدّين الذي إقتنع به عقله والذي رآه طريقًا لخلاصه الأخروي، فالإيمان الحقيقيّ عند لوك هو ذلك الإيمان النّابع من رضى العقل البشري، ويرى أنّه لا يمكن إخضاع الإنسان من طرف الحكّام لدينٍ معيّن أو عبادةٍ معيّنة، فحتى وإن حاول تكييف إيمانه كما قال لوك مع ما فُرِض عليه، فهذا الأمر[4] «لا يفضي إلى خلاص النّفس بل يقف حجر عثرة أمام خلاصنا، ومن هذه الزّاوية فإنّك بدلًا من التّكفير عن خطاياك الأخرى بممارسة الدّين تقدّم إلى الله عبادة أنت تؤمن بأنّها لا ترضيه فتضيف خطيئة أخرى وهي النّفاق وإزدراء الجلالة الإلهيّة.»[5]

أمّا الإعتبار الثّاني، فمفاده أنّ الحاكم لا يمكنه أن يجبر رعيّته للدّخول في دينٍ واحد، عن طريق تخويفهم بِاستخدام القوّة وتجريدهم من حقوقهم المدنيّة، فحتى وإن رضخوا له سيبقى إيمانهم نابع عن خوف لا عن اِقتناعٍ جوّانيّ، وهذا ما لا يرضاه الله حسب لوك، ولا يعني هذا أن يُقصى الحاكم من إنسانيته، فمن واجبه أن يكون إنسانًا خيّرًا يدعو النّاس إلى الهداية بالنّصح والإرشاد وبالعقل كغيره من النّاس، فالنّصح والوعظ والتّنبيه للأخطاء واجب على كل فرد، لكن دون اِستخدامٍ للقوّة التي هي من صلاحيات الحاكم المدنيّ فقط، ورغم أنّ القوّة وفرض العقوبات

[1] ستفن ديلو، التّفيكر السّياسي والنّظريّة السّياسيّة والمجتمع المدني، مرجع سابق ، ص296.
[2] صالح مصباح، فلسفة الحداثة اللّيبيراليّة الكلاسيكيّة من هوبز إلى كانط، مرجع سابق، ص149،148.
[3] جون لوك، رسالة في التّسامح، مصدر سابق، ص24.
[4] المصدر نفسه، ص25،24.
[5] المصدر نفسه، ص25.

من مهامه، إلّا أنّه لا يمكنه توظيفها في المجال الدّينيّ والعقائديّ[1]، «ذكر لوك أيضًا أنّ هناك من الأمور الأخلاقيّة مثل الوثنيّة، والحسد، والتّكاسل، واللّؤم ما يتعارض مع مذاهبٍ دينيّةٍ معيّنةٍ، إلّا أنّ الدّولة لا يمكن أن تعاقب عليها. وهكذا يدوم الحال ما دامت هذه النّماذج من السّلوك ليست ضارّة بحقوق الآخر أو ما دامت تلك الأشكال من السّلوك لا تهدّد السّلام العام.»[2]

وفي الإعتبار الأخير الذي قدّمه لوك يرى بأنّ اِعتناق الأفراد واِتّباعهم لديانة الحاكم، لا يفضيهم إطلاقًا ولا يمنحهم ذلك الخلاص، وأنّه من الغرابة أنْ يستغنيّ أو أنْ يلغيّ الإنسان سعادته فقط ليتّبع ويخضع لدين الحاكم الذي هو بشر مثلنا غير معصوم من الخطيئة[3]، يقول جون لوك: «وفي حالة اِفتراض وجود حقيقة واحدة وطريق واحد إلى السّماء فأيّ أمل هناك في أن يبلغها عدد أكبر من البشر إذا لم يكن لديهم سوى دين السّلطان وإذا كانوا في حالة مضطّرين فيها إلى التّخلّي عن نور عقولهم ومخالفة ما تمليه عليهم ضمائرهم، والإستسلام الأعمى لإرادة الحكّام وللدّين الذي جاء إليهم بالصّدفة... وهذا يعني أنّ بلدًا واحدًا يمتلك الحقيقة وأنّ بلدان العالم الأخرى محكوم عليها بالخضوع لأمراء هذا البلد في الأمور الّتي تؤدّي إلى هلاكهم.»[4]، واِنطلاقًا من هذا فالحاكم عند لوك مجرّد موظف عند الشّعب وليس وريث الله في الأرض كما يزعم البعض، متى أحسن أداء مهامه لقي ترحيبًا وثناءًا من رعيته، والعكس إذا جار واِستبدّ، حينها يحق للشعب أن يثور من أجل حقوقه المشروعة[5]، و«إنّ حرص لوك الشّديد على إقرار وحماية حرّيّة المواطنين وضمان حقوقهم في الملكيّة الخاصّة، قد أدّى به إلى تحذير الحكومات من مَغَبَّةِ التّقصير في آداء واجباتها، أو الإتّجاه إلى اِنتقاص حقوق رعاياها. وفي هذا الشّأن فقد جوّز لوك أن تثور الجماهير على الحكومات، ولكن فقط بهدف تغيير شخص الحاكم، والإتيان ببديل أفضل منه.»[6]

[1] جون لوك، رسالة في التّسامح، مصدر سابق، ص25.
[2] ستفن ديلو، التّفيكر السّياسي والنّظريّة السّياسيّة والمجتمع المدني، مرجع سابق، ص297.
[3] جون لوك، رسالة في التّسامح، مصدر سابق ، ص26،27.
[4] المصدر نفسه، ص26،27.
[5] ستفن ديلو، التّفيكر السّياسي والنّظريّة السّياسيّة والمجتمع المدني، مرجع سابق، ص294.
[6] محمّد وقيع الله أحمد، مدخل إلى الفلسفة السّياسيّة، دار الفكر، دمشق،2010، ص173.

ويجدر بنا في الأخير أن نشير إلى موقف مهم بالنّسبة للوك، الذي من خلاله وضع حدودًا للتّسامح لديه، يقول: «وأخيرًا لا يمكن التّسامح على الإطلاق مع الّذين ينكرون وجود الله. فالوعد والعهد والقسم، من حيث هي روابط المجتمع البشري، ليس لها قيمة بالنّسبة إلى الملحد. فإنكار الله، حتى ولو كان بالفكر فقط، يفكّك جميع الأشياء.»[1]

بهذا جسّد جون لوك مذهبه في التّسامح داخل مجتمع مدنيّ أراد أن يكون مبدأه، عش ودع غيرك يعيش.[2]

[1] جون لوك، رسالة في التّسامح، مصدر سابق، ص57.
[2] ستفن ديلو، التّفيكر السّياسي والنّظريّة السّياسيّة والمجتمع المدني، مرجع سابق، ص297.

من خلال ما قمنا بعرضه وتحليله في هذا الفصل، يمكن القول أنّ لوك من الفلاسفة الّذين لعبت ظروف نشأتهم الإِجتماعيّة والسّياسيّة، دورًا مهمًّا في تكوين فكرهم الفلسفيّ. فجون لوك عاش في أسرة إستمدّت أخلاقها من الطائفة الدّينيّة التي تنتمي إليها، ولقد تميّزت طائفتهم هذه بالتّسامح الدّيني ومحبّة الآخر والحثّ على التآخي والمبادرة بفعل الخير، فكان جوّه الأسري غايةً في السّلم والهدوء والتنشئة السليمة، التي حرص والده على غرسها فيه، فنشأ لوك على قيم توجهه الدّيني من جهة ونصائح وتربيّة أبيه من جهة أخرى، ظلت هاته القيم والتربيّة ملازمة له حتى صار شابًّا واعيًا بالظروف المحيطة به، لاسيما تلك الظروف السّياسيّة المشحونة بالصّراعات اللّامتناهيّة، والتي كان وقودها الرّئيسيّ الإِختلاف الدّينيّ، بهذا وجد لوك نفسه داخل تلك النّزاعات، خاصةً وأنّ عقيدته كانت في تعارضٍ مع عقيدة السّلطة الحاكمة، وبما أنّ لوك نشأ على حبّ الحرّيّة كان دائم السعيّ من أجل بلوغها وتحقيقها من خلال دفاعه عن حقوق الإنسان، فكان هذا عاملا في إحتكاكه برجال سياسيّين هم أيضًا متعطّشين للحريّة ورافضين لسلطة الحاكم المطلقة، من أمثال اللورد آنطوني آشلي، الذي كان له الفضل الكبير على لوك في زيادة خبرته في شؤون الدّولة والحكم حين أقحمه في وظائف ومهمّات سياسيّة.

قدّم لوك فلسفةً سياسيَّةً مستوحاة من واقعه المعاش، فلسفةً ضمّن فيها الحلّ حين تبنّى فكرة التّسامح الّتي نشأ عليها منذ الصّغر. لقد أضافت هذه القيمة لفكره السّياسيّ ميزة غابت عن عصره الذي تميّز بالتناحر والصّراعات نتيجةً للتعصّب الدّيني.

كما جسّد لوك فكرة التّسامح لديه حين أقرّ بأنّ الإنسان عاش فترة طبيعيّة أساس نظامها القوانين الطّبيعيّة الدّاعيّة إلى الحرّيّة والمساواة والتّعاش والأمن، فالفرد فُطر على تلك الحقوق ولا يمكن لأحد أن يتعدّاها، وستبقى هذه الحقوق الطّبيعيّة مضمونة حتى وإن اِنتقل الأفراد إلى الحالة المدنيّة، بل إن سبب إنتقاله هو المحافظة عليها أكثر في ظلّ قوانين وضعيّة مستمدّة شرعيّتها

من سنن الطّبيعة. وعليه طرح لنا لوك مجتمعًا مدنيًّا تحكمه سلطة محدودة بمهمة الحفاظ على تلك الحقوق الطبيعيّة والتي تعدّ الحرّيّة أهمها على الإطلاق.

في مؤلف رسالة في التّسامح، الذي أُشتهر به لوك، تناول فيه أحد أبرز جوانب الحرّيّة، والّتي تمثّلت في حرّيّة المعتقد، ودافع جون لوك عن التّعدّديّة الدّينيّة في المجتمع الواحد، ورأى بأنّها المخرج لوضع الصّراع والنّزاع والعنف والتّعصّب ذاك، الذي خيّم على القارّة الأوروبيّة لعدّة قرون. فقدّم لنا بذلك مجتمعًا علمانيًّا هدف حكومته صيانة حقوق شعبها والصّالح العام للبشر فقط، دون أنّ تتدخّل في معتقد ودين رعاياها، لأنّه ليس من مهامها تحقيق خلاص الأمة، فرسم لوك حدًّا فاصل بين السّلطة الدّينيّة والسّلطة المدنيّة، بهذا الحدّ يمكننا تأسيس دولةً لبيراليّة ومجتمعٍ يسوده السّلام والتّسامح والأمن، يؤمن بنسبيّة الأشياء وتقبّل الآخر بِاختلافه، والأهمّ من كل هذا، مجتمع خالٍ من التّعصّب والصّراع.

الفصل الثالث : أثر فكر لوك السّياسيّ في النّظريّة والممارسة.

المبحث الأوّل : أثره على مستوى التّنظير السّياسيّ.

1) أثر لوك في فكر فولتير السّياسيّ.

2) أثر لوك في فكر توماس جيفرسون السّياسيّ.

المبحث الثّاني : أثره على مستوى الممارسة السّياسيّة.

1) الثورة الأمريكيّة.

2) الثورة الفرنسية.

بعدما أضاف جون لوك لفلسفته السّياسيّة مذهبه في التّسامح، خَلُصَ في الأخير إلى فكرٍ سياسيٍّ علمانيٍّ لبيراليّ، داعٍ إلى الحرّيّة ومدافعٍ عن حقوق الإنسان، فكان بذلك فيلسوف الحرّيّة ورائد اللّيبراليّة بِامتياز.

مثل هذا الفكر السّياسيّ التّحرّري، جاء في وقت كانت فيه حقوق الإنسان مضطهدة والحرّيات الفرديّة مسلوبة، واِستبداد الحكّام بلغ ذروته، كما خلّفت الحروب الطائفيّة ما خلّفته من تناحر وعدوات واِنشقاقات، لذلك أُعتبِر هذا الفكر بمثابة مفاتيح لأبواب الحرّيّة، وقاعدةً اِنطلق منها العديد من الفلاسفة التّنويريّين، ومنهلاً للسّياسيّين الذين سعوا إلى تغيير أوضاعهم وتنظيم مجتمعاتهم بشكل يضمن حفظ حقوق شعوبهم ودمائهم.

وعليه سنتناول في هذا الفصل الأخير، أولئك الفلاسفة والمنظّرين الذين تأثّروا بفكر لوك. بالإضافة إلى اِستعراضنا لنماذج واقعيّة للممارسة السّياسيّة الّتي كان روح تشريعها فلسفة لوك السّياسيّة.

المبحث الأوّل: أثره على مستوى التّنظير السّياسيّ:

لقد لقيّت تلك النّهضة الدّاعيّة إلى الحرّيّة وحقوق الإنسان ومحاربة ذلك الإِضطهاد السّياسيّ والدّينيّ، والّتي تبنّاها جون لوك في آرائه وفلسفته السّياسيّة، تجاوبًا كبيرًا في العالم الغربيّ عامّةً، والقارّة الأوروبيّة خاصّةً، وبالتّحديد في الوسط الفلسفيّ. حيث «كان للوك كبير الأثر في تاريخ الفكر السّياسيّ وخاصةً في القرن الثّامن عشر.»[1] فنجد الكثير من الفلاسفة قد نحوا نحوه واِتّخذوه البداية التي إستوحوا منه فكرهم الفلسفيّ السّياسيّ، وطرحوا بذلك نظريّات سياسيّة كان لها الأثر هي الأخرى. ولعلّ أبرز هؤلاء الفلاسفة هم فولتير وتوماس جيفرسون Thomas Jefferson (1743-1826) .

1) أثر لوك في فكر فولتير السّياسيّ:

يعدّ فولتير «كاتب ومفكر فرنسي شهير. ولد في باريس في 24 نوفمبر 1694.»[2] ، «اِسمه الحقيقيّ فرانسوا ماري أروي _ Fracncois Marie A rout... ولد في عهد الملك لويس الرّابع عشر في أسرة فرنسيّة تنتمي إلى الطّبقة البرجوازيّة... تلقى علومه في معهد يشرف عليه الآباء اليسوعيون وقد أهّله ذكاؤه وعلمه ومكانة أسرته لِاكتساب شهرة واسعة وسط المجتمع الأرستقراطي... نفي إلى إنجلترا عام 1726.»[3]، لقد كان هذا النّفيّ منعطفًا مهمًّا في حياة فولتير، فإنجلترا آنذاك كانت أرضًا للإزدهار العلمي والتّنوع الفكري، والحرّيّة فيها قد بلغت مداها، خاصةً بعد اِنتشار أفكار وفلسفة لوك السّياسيّة والّتي تُوّجت بالثّورة الإنجليزيّة المجيدة سنة 1688م، ففولتير الذي «لجأ إلى إنجلترا لكي يتجنّب السّجن بلا محاكمة... سرعان ما أصبح معجبًا متحمّسًا بمؤسّسات بلدٍ لم تعق فيه الدّولة والكنيسة إنسانًا مهذّبًا في سلوكه أو في التّعبير عن آرائه.»[4]، ولم ينكر ذلك البتّة فقال: «ولقد أذهلني مدى التّسامح الدّينيّ، بصفة خاصّة في

[1] موسى إبراهيم، الفكر السّياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص129.
[2] عبد الرّحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، مرجع سابق، ص201.
[3] عارف عادل مرشد، ملامح من الفكر السياسي عند فولتير، فيلاديفيا الثّقافيّة ، الأردن، (د.ت)، ص41.
[4] ويليم كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص233.

إنجلترا وليبراليّة السّياسة في التّجارة الإنجليزيّة وقوة العلم والفلسفة في إنجلترا.»[1] ولقد كان مهتّما كثيرًا بالدّستور الإنجليزي وبنظام الحكم وبالجوّ السائد بها عامّةً، حيث قال: «هنا، لا أحد يمكن أن يفقد حرّيّته بأيّ سلطةٍ من السّلطات. ولا أحد يمكن أن يُعاقب بدون محاكمةٍ. هنا حرّيّة كاملة للكتابة والخطابة والصّحافة، وتسامح دينيّ كامل بين الأديان المختلفة. لقد رأى الآن الفرق بين نظامين. بدا واضحًا في كتابه "رسائل عن إنجلترا" الّتي تعتبر نقطة اِنطلاقٍ، وبداية الثّورة الفرنسيّة. فقد كتب، عن حرّيّة الإنجليز، إنّ الرّجل الإنجليزيّ، يذهب إلى الجنّة عن طريق الدّرب الذي يختاره هو بمحض حرّيّته»[2] وأمّا عن الحرّيّة السّياسيّة فقد لاحظ أن إنجلترا على غرار البلدان الأوروبيّة قد تميّزت بنظام حكمها المقيّد، فالحاكم في إنجلترا هو حرٌّ ما دامت غايته حماية الرّعيّة[3]، إنّه لتقاربٌ كبير بين آرائه ونظريّة العقد الاِجتماعيّ عند جون لوك، فلقد كان شديد الإعجاب بفكره السّياسيّ الدّاعي للحرّيّة والتّسامح الدّينيّ بين العقائد داخل الأمّة الواحدة، «ولا يتضمّن ما هو جديد من أفكار فولتير في الدّين والتّسامح، أيّة خاصيّة ذاتيّة لها فهي لا تختلف عن أفكار لوك»[4]، فكان بذلك «تلميذًا متواضعًا للوك»[5]، الّذي تبنّى آراءه في الحرّيّة والتّسامح الدّينيّ ومحاربة جلّ أنواع التّعصب والعنف والاِضطهاد، فكانت أعمال لوك السّياسيّة عبارة عن قاعدة إستند إليها فولتير لبناء فكره السّياسيّ الذي أُعتبر نوعًا من الكفاح ضدّ الاِستبداد السّياسيّ والاِضطهاد الدّينيّ[6]، حيث «يقول في كتابه "التّسامح":

لا يحتاج المرء إلى براعة فائقة أو فصاحة نادرة لكي يبرهن على لزوم التّسامح بين المسيحيين، بل بين جميع الناس على السّواء، وقد تسألني الآن: هل يجب عليَّ أن أعتبر التركيّ أو الصينيّ أو اليهوديّ أخًا لي؟ أقول :أجل، أليس كلنا أبناء أب واحد وخلائق رب واحد؟»[7]

[1] أندرزيجي كروز وليود سبنسر، عصر التّنوير، تر: إمام عبد الفتّاح إمام، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة، 2005، ص45.
[2] عارف عادل مرشد، ملامح من الفكر السّياسي عند فولتير، مرجع سابق، ص42.
[3] المرجع نفسه، ص42.
[4] جورج سباين، تطوّر الفكر السّياسيّ، تر: علي إبراهيم السيّد، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ج4، (د ب)، (د س)، ص37.
[5] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص178.
[6] ستفن ديلو، التّفيكر السّياسي والنّظريّة السّياسيّة والمجتمع المدني، مرجع سابق، ص295.
[7] سلامة موسى، حرّيّة الفكر وأبطالها في التّاريخ، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، 2014، ص141.

ولقد كان المجتمع الفرنسي الذي ينتمي إليه فولتير، كباقي مجتمعات الدّول الأوروبيّة، يعاني من الظّلم والإِستبداد من طرف السّلطة السّياسيّة على رأسها الحاكم وكذا السّلطة الدّينيّة بقيادة رجال الكنيسة، حيث كانت السّجون مليئة بالمظلومين، وعقوبات الإعدام من دون الرّجوع إلى محاكمة لا تعدّ ولا تحصى، والقتل بإِسم الدّين وخلاص الأنفس جرائم مباحة. كان فولتير كباقي مواطنيه من الفلاسفة والمضطهدين، أمام كل هاته الظّروف المتأزمة يقف حائرًا أين يكمن الحلّ للخروج من كلّ هذا؟ لكن فولتير كانت دهشته وإعجابه بالنّموذج الإنجليزي أكثر من حيرته لوضع بلده، لأنّه كان أمام مقارنة واقعين مختلفين تمام الإِختلاف، ولقد إِكتشف بعد التجربة المعاشة والبحث، أنّ الفرق موجود في تداخل وظائف السّلطات في نظام بلاده على عكس إنجلترا، لهذا كان من دعاة الفصل بين السّلطة الزّمنيّة والرّوحيّة، متأثرًا بذلك بجون لوك[1]

عُرف فولتير بأنّه كان نصير المضطهدين دينيًّا وسياسيًّا، فـ«لم يعرف تاريخ الفكر شخصًا كرّس حياته كلّها لمحاربة التّعصّب الدّيني مثل فولتير... ولهذا السبب أصبح إِسمه رمزًا يستنجد به النّاس في كل مكان في العالم: أي عندما يزيد التّزمت والإكراه في الدّين عن حدّه... وللتّسامح أو التّعايش بين الأديان والمذاهب المختلفة راح فولتير يدعو ويكتب مؤلفاته الواحد بعد الآخر، من دون كلل أو ملل. وربّما لهذا السّبب أهداه نيتشه أحد كتبه قائلًا: إلى فولتير، أحد كبار محرّري الرّوح البشريّة. بل لم يكتف بالكتابة والتّنظير، وإنّما نزل إلى ساحة المعركة مدافعًا عن كل المضطهدين»[2]، ولقد وقعت حادثة في عصر فولتير أُعتبرت مثالًا حيًّا لواقع فرنسا المتميّز بالتّعصّب والجور الدّينيّ والسّياسيّ. جرت أحداث هذه الواقعة في مدينة تولوز Toulouse الفرنسيّة الّتي أُشتهرت كذلك بتعصّب سكانها الكاثوليكيّين، وكان من بين قاطنيها رجل مع عائلته الّتي تنتمي إلى الطائفة البروتيستانتيّة، ورغم أنّ أحد أبنائهم قد غيّر توجّهه إلى الكاثوليكيّة فإنّهم لم يعارضوه حتّى، وكانت لدى الإبن الثّاني رغبة في أن يدرس القانون، لكن هذا الأمر قد حرّمّ على الذين ينتمون للمذهب البروتيستانتي، بهذا وقع الإبن داخل صراع بين توجّهه الدّيني

[1] صالح مصباح، فلسفة الحداثة اللّيبيراليّة الكلاسيكيّة من هوبز إلى كانط، مرجع سابق، ص13.
[2] هاشم صالح، مدخل إلى التّنوير الأوروبيّ، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، لبنان، 2005، ص215.

المتمسّك به، وبين رغبته في مزاولة دراسته في القانون، ممّا أدى إلى إصابته بإضطراب نفسيّ ومن ثمّ قيامه بالإنتحار، فأُتّهم الأب بقتل ولده ضنًّا منهم أنّ الإبن أراد إعتناق الكاثوليكيّة لكنّه قوبل بالمعارضة من طرف أبيه لهذا أقدم على قتله، فأصدرت المحكمة حكمًا في حقّه بتّعذيبه حتّى الموت. سمع فولتير بهذه القصّة الّتي إعتبرها تمادٍ لإستبداد السّلطة في بلاده، لهذا عمل على إظهار الحقيقة، وبعد ذلك وصل فولتير إلى مبتغاه بأن أُعيد النّظر في القضيّة وتبرئة الأب من التّهمة، وكذا عزل القضاة من مناصبهم[1]

وبهذا يمكننا القول أنّ فولتير من الفلاسفة الذين أبدوا إعجابهم بالوضع السّائد في إنجلترا، ولقد إستنتج أنّ التّعصّب الدّينيّ الذي كان سائدًا في فرنسا، هو سبب لتلك الأوضاع المزريّة والمتدنيّة، لهذا قام بإستعارة أفكار الفلاسفة الإنجليز مؤكدًا على آراء جون لوك الّتي تتّسم بروح التّسامح والتحرّر، من أجل القضاء على تلك النّزعة الطائفيّة والمذهبيّة المتعصّبة[2]، يقول فولتير: «لقد إستخدمت النّموذج الإنجليزي للهجوم على النّظام الفرنسيّ»[3]، فكتب العديد من المؤلّفات والرسائل، حيث «وصفت رسائل فولتير بأنّها أوّل قنبلة تُلقى على النّظام القديم، وظهرت طباعات خفية في فرنسا، وصدر أمرٌ بإعتقال فولتير، وأُحرق الكتاب رسميًّا، وحُرّم بيعه تحريمًا مطلقًا.»[4]، ورغم هذا واصل فولتير كفاحه الفكري التّنويري الذي ورثه عن جون لوك حتى وافته المنيّة سنة 1778، فساهم فيما بعد في تغيير الأوضاع في فرنسا، كأحد أبرز الفلاسفة الذين نظّروا للثّورة الفرنسيّة.

[1] سلامة موسى، حرّيّة الفكر وأبطالها في التّاريخ، مرجع سابق، ص143،142.
[2] المرجع نفسه، ص234،233.
[3] أندرزيجي كروز وليود سبنسر، عصر التّنوير، مرجع سابق، ص45.
[4] المرجع نفسه، ص45.

2) أثر لوك في فكر توماس جيفرسون السّياسيّ:

ولد السّياسيّ توماس جيفرسون «عام 1743 في مدينة شادويل Shadwell في فرجينيا، لأسرة تنتمي لطبقةٍ أرستوقراطيّة وتعمل في الزّراعة...إلتحق جيفرسون بكلّية وليام وماري William and Marrry College في المدّة ما بين عامي 1760-1762... بعد تخرّجه من كلّية وليام وماري عام 1762 إنخرط في مكتب محاماة... كان عام 1767 بداية دخوله الحياة العمليّة فقد اِستمرّ توماس جيفرسون في معالجة العديد من القضايا كمحامٍ في ولاية فرجينيا...رشّح في عام 1769 ليصبح عضوًا في برلمان فرجينيا.»[1]، بالإضافة إلى أنّه كان«أحد رؤساء الولايات المتّحدة الأمريكيّة، والكاتب الرّئيسي لوثيقة إعلان الاِستقلال الأمريكيّة عن الحكومة البريطانيّة في 4 تمّوز 1776 وثالث رئيس للولايات المتّحدة الأمريكيّة لدورتين متتاليّين...أُنتخب...عام 1801 وكان من أهمّ أحداث عهده شراء أراضي لويزيانا الشاسعة من فرنسا عام 1803.»[2]

يعتبر توماس جيفرسون من المفكّرين والسّاسة الذين تأثّروا بجون لوك، فقد «إمتدّ تأثير لوك بحيث جاوز الفلسفة، فكتاباته في السّياسة ألهمت أيضًا المصلحين في عصر التّنوير من أمثال... جيفرسون.»[3]، فحين قام توماس جيفرسون بكتابة وثيقة إعلان الاِستقلال الذي تضمّن العديد من العبارات الدّاعية لحقوق الإنسان، كان متأثّرًا بالفلسفة السّياسيّة الحديثة بالتّحديد للوك فأُعتبِر بذلك السّياسيّ الذي جسّد نظريات لوك السّياسّة الدّاعيّة للحرّيّة السّياسيّة والدّينيّة والفكريّة وكذا إلى المساواة وجميع حقوق الإنسان الّتي اِعتبرها هو الآخر جدّ مقدّسة، ومن هذا المنطلق يقول توماس جيفرسون : «خلق النّاس جميعًا متساوين ووهب الخالق النّاس حقوقًا فطريّة لا يمكن التّصرّف فيها... حقّ الحياة وحقّ الحرّيّة وحقّ النّاس في أن ينشدوا السّعادة. ولضمان الحقوق تؤسّس الحكومات بين النّاس مستمدّة سلطتها الحقّ من رضاء المحكومين. وإنّه إن غدا

[1] نجلاء عدنان حسين، توماس جيفرسون ودوره في السّياسة الأمريكيّة حتى عام 1826، مجلّة كلّيّة التّربيّة الأساسيّة، جامعة المستنصريّة، ع 99، (د.ب)، 2017، ص.
[2] المرجع نفسه، ص341.
[3] أندرزيجي كروز وليود سبنسر، عصر التّنوير، مرجع سابق، ص53.

أيّ شكلٍ من أشكال الحكومة هدّامًا وغير محقّقٍ لهذه الأهداف، أصبح من حقّ الشّعب أن يغيّرها أو يلغيها.»[1]، ويعدّ قول جيفرسون هذا أحد النّقاط الّتي أقرّها لوك في آرائه السّياسيّة من قبل، حين تكلّم عن الإرادة العامة ورضى الأغلبيّة في إقامة العقد الّذي من خلاله ينتقل الأفراد من الحالة الطّبيعيّة إلى الحالة المدنيّة، مشكّلين بذلك دولة تقوم على قوانين وضعيّة يحرص الحاكم على تطبيقها في حالة التّعدي على حقوق الأفراد المدنيّة والّتي يسمّيها لوك بالوديعة وبهذا تكون السّلطة محدودة لا مطلقة كما ذكرنا سابقا، وكذلك أحد الآراء الّتي إستوحاها جيفرسون منه.

«كان توماس جيفرسون يرى أنّ الإستبداد الدّيني أكبر مقتًا من الإستبداد السّياسيّ. وأنّ الإنسان يَعْبُدُ حسب اِختياره...لأنّ الدّين كما يقول جيفرسون مسألة بين الإنسان وخالقه وليس لأحدٍ الحقّ في أن يتدخّل فيها وهو كذلك بالنّسبة للشّعب فالتّسامح الدّينيّ حاجة أساسيّة ليس لذاته بل لحفظ المجتمع الديمقراطي.»[2]، وعليه فنجد جيفرسون هنا قد اِستمدّ فكرة التّسامح من رسالة لوك في التّسامح بِاعتباره قد إطّلع على «كتابات لوك الّتي كان يرى جيفرسون أنّها تكاد تبلغ حدّ الكمال.»[3]، فجون لوك كان رافضًا لفكرة قيام دولة أو مجتمعٍ مدنيّ شريطة اِتّباع الأفراد لدينٍ أو ملّة واحدة، وبدل ذلك رأى «أنّه يجب أن يسود التّسامح بين النّاس على اِختلاف أديانهم وطوائفهم، وألّا تميّز الدّولة بين معتنقي الأديان المختلفة، وأن تترك الكنيسة وشأنها فيما يتعلّق بمسائل العقيدة بحسب قوانين العامّة، وبذلك تُتَحَقَّقُ الحرّيّة في سائر جنبات المجتمع المدنيّ.»[4]. وبعد إنتهاء ولاية جيفرسون الرّئاسيّة قام بتأسيس مؤسسة تعليميّة، أرادها أن تكون مؤسّسة حرّة لا تمتّ بصلة لأي من التّأثيرات الدّينيّة والعقائديّة، بغية إفساح المجال أمام الطّلبة في أن يتخصّصوا في المواد ومعارف جديدة مخالفة لما كان سائدًا.[5]

[1] إمام عبد الفتّاح إمام، الأخلاق والسّياسة، مرجع سابق، ص51.
[2] نجلاء عدنان حسين، توماس جيفرسون ودوره في السّياسة الأمريكيّة حتى عام 1826، مرجع سابق، ص353.
[3] فاروق عبد المعطي، توماس جيفرسون الفيلسوف العالم، دار الكتب العلميّة، لبنان، 1993، ص33.
[4] محمّد علي أبو ريّان، تاريخ الفكر الفلسفيّ، مرجع سابق، ص180.
[5] نجلاء عدنان حسين، توماس جيفرسون ودوره في السّياسة الأمريكيّة حتى عام 1826، مرجع سابق، ص372.

المبحث الثاني: أثره على مستوى الممارسة السّياسيّة.

لم تبق فلسفة لوك السّياسيّة حبيسة التّنظير فقط، بل تعدّت ذلك لتصبح واقعيّة، «فحركات التّحرير الكبرى الّتي سادت أوروبا في القرن الثّامن عشر ـ لم تكن سوى اِمتداد طبيعيّ لفلسفة لوك. تلك الفلسفة الّتي كانت تقوم على اِحترام القيم الإنسانيّة والحرّيّة الفرديّة سواء في الدّين أو الفكر أو السياسة، وتنادي بتحرير الفرد الذي كان قد إنطمست معالم شخصيته في ظلّ من اِستبداد الكنيسة وتلاشت حقوقه واِنصهرت في نارٍ من طغيان الملوك وتعصّبهم فأصبحت حياته كلها واجبات بلا حقوق.»[1]، لقد ندّد لوك ودعا إلى منح الإنسان لحقوقه الّتي رأى بأنّها مقدّسة ولا يمكن المساس بها «يقول لوك: عندما يثبت في ضمير الأغلبيّة أنّ قوانينهم، ومعها عقّاراتهم، وحرّيّاتهم، وحياتهم، وربّما دينهم أيضًا قد أصبحوا في خطر كيف سيمكن إثناؤهم أو إعاقتهم عن مقاومة القوّة غير الشّرعيّة تلك المصوّبة ضدهم؟»[2]، فبقوله هذا أرد أن يشرع ويجيز للشّعوب المضطهدة أن يقيموا ثورة على حكومة بلدانهم، «فمن حقّ المواطنين دائمًا أن يحتفظوا لأنفسهم بخيار الثّورة على الحكّام. والحقيقة أنّه خيار لا يمكن للمواطنين أن يتخلّوا عنه نظرًا لأنّه ليس من سلطة المواطن على نفسه أن يُخضع نفسه لفرد آخر بإعطائه الحرّيّة لتدميره، فالله والطّبيعة لم يسمحَا مطلقًا أن يودي بنفسه بتخليه عن حفظه لذاته. وبناءًا على هذه الرّؤية يقدّر الله على كلّ شخصٍ فينا واجب المحافظة على الحرّيّة، وضمان عدم سلبنا إيّاها.»[3]

من هذا المنطلق ومن هاته الرّؤية اللّوكيّة، اِستندت بعض شعوب العالم المحرومة من حقوقها من أجل الإنتفاضة والقيّام بثورة، رأت فيها المنفذ الوحيد للوصول لحرّيّتها وبلوغ جميع حقوقها، ولعلّ أبرز تلك الشّعوب الولايات المتّحدة الأمريكيّة وكذا فرنسا.

---

[1] **محمد عبدالرحمن محمد**، "أهميّة فكر لوك في تاريخ الفكر الفلسفي"، مجلّة أهل القرآن الإلكترونيّة، [http://www.ahl-alquran.com/arabic/printpage]، 25 ماي 2019، 00:40.

[2] ستفن ديلّو، التّفكير السّياسيّ والنّظريّة السّياسيّة والمجتمع المدنيّ، مرجع سابق، ص295.

[3] المرجع نفسه، ص295،294.

1) الثورة الأمريكيّة:

تُعرف أيضًا بحرب الإستقلال الأمريكيّة، "American War of Independence"، «وهي الحرب التي نشبت بين المستعمرات البريطانيّة في أمريكا الشّماليّة البالغة 13 ولاية والمطلّة على المحيط الأطلسي وبين الحكومة البريطانيّة والّتي اِنتزعت بموجبها المستعمرات حرّيّتها واِستقلالها وكوّنت جمهوريّة الولايات المتّحدة الأمريكيّة.»[1]

لقد كانت الولايات المتّحدة الأمريكيّة مستعمرة من بين المستعمرات البريطانيّة قبل أن تكون دولة قائمة بذاتها ذات إستقلالٍ سياسيّ واِقتصادي...الخ، إلّا أنّ بريطانيا كان هدفها الوحيد هو توسيع أراضيها، واِستغلالها لثروات مستعمراتها وكذا «جعل أمريكا سوقًا للمصنوعات البريطانيّة، ومن ثمّ أعاق نموّ صناعات المستعمرات ... ومن ناحيّة أخرى فرضت إنجلترا قيودًا عديدةً على التّجار الأمريكيّين... وفي مارس 1763 أصدر البرلمان "قانون الدمغة" الشّهير الذي يطالب بلصق طابع دمغة على جميع ما يصدره في المستعمرات ... أثار هذا القانون الجديد تذمّرًا عنيفًا بين شعب المستعمرات، فهاجمه زعماؤهم، وتكوّنت عام 1765 جمعيات سميّت بِاسم "أبناء الأحرار" وعقدت المؤتمرات للاِحتجاج على تعدّي البرلمان الإنجليزي على حقوق الرّعايا الأحرار»[2]، ورأوا بأنّ هذا البرلمان محتكرٌ، يخدم مصالح الحكومة البريطانيّة فقط، مادام أنّهم لا يملكون ممثّلين داخل ذلك البرلمان، وبموجب الوثائق التي تضمن حقوق الأفراد الّتي طالما تغنّت بها السّلطات البريطانيّة، فإنّها لا يجب أن تقوم بفرض أيّة ضرائب عليهم دون أن تقوم بِاستشارة وموافقة ممثّليهم في البرلمان، لكن بريطانيا هنا قد استثنت شعوب المستعمرات في أن يكون لديهم ممثلين، وكيف تنادي بريطانيا بحقوق الأفراد في حين أنّها تضطهدهم، لهذا كان سكّان المستعمرات يطالبون بالمساواة وبجميع حقوقهم[3] «وحجّتهم في ذلك أنّهم مواطنون إنجليز لابدّ وأن يتمتّعوا بالحقوق ...الطّبيعيّة الّتي تحدّث عنها جون لوك، وأن يطبّق على المستعمرات

[1] عبد الوهّاب الكيالي، موسوعة السّياسة، دار الهدى للنّشر والتّوزيع، ج2، بيروت، (د.س)، ص175.
[2] إمام عبد الفتّاح إمام، الأخلاق والسّياسة، مرجع سابق، ص332،331.
[3] المرجع نفسه، ص332.

الدّستور البريطانيّ دون تمييز بينها وبين الجزر البريطانيّة.»[1]، وما نلاحظه هنا، أنّ الثورة الأمريكيّة في بداياتها كان هدفها المطالبة بحقوقهم أهمّها المساواة دون اِستقلال عن المملكة البريطانية، لكن فيما بعد تحوّلت إلى ثورة هدفها الاِستقلال التّام لأنّهم أحسّوا بخطر المساس بحقوقهم الطبيعيّة، فكانت ثورتهم شرعيّة حسب الآراء الّتي طرحها جون لوك، فقد «كان... هو مصدر التّفكير السّياسيّ الّذي ساد الولايات المتّحدة إبّان ثورتها، فهو المعين الّذي إستقى منه قادة الثورة الأمريكيّة مبادئها بطريق مباشر، فمن كتابات جون لوك... اِستمد الأمريكيّون سلاح الحجج الّتي هاجمو بها الملك والبرلمان في حكمها... ولو كان هناك رجل واحد يجوز أن يقال أنّه ساد الفلسفة السّياسيّة في عهد الثّورة الأمريكيّة، فذلك هو جون لوك إذ لم يكن الفكر السّياسيّ الأمريكي إلّا تأويلًا لما كتبه لوك. حتّى أنّ الأمريكيّين أنفسهم وصفوه بقولهم أنّ فيلسوف أمريكا وواضع الأساس لفكرها السّياسيّ.»[2] وبهذا يكمن القول أنّ الثّورة الأمريكيّة «كانت في الواقع تردد أنغام الحرّيّة الّتي طالما ردّدها لوك، وثار من أجلها والتي تبلورت بعد ذلك في المناداة بالدّيمقراطية بِاسم الحرّيّة والمساواة، وظهرت في شكل مقالتيه في الحكومة المدنيّة، والتي ظهرت في آراء جيفرسون وتوماس بين... وفي نص وثيقة الاِستقلال الأمريكيّة تلك الوثيقة الّتي لم يكن مضمونها من اِبتكار واضعيها، بل كانت مجرد تعبير عن آراء جون لوك.»[3]، إنتهت الثّورة الأمريكيّة ورغم أنّ المواجهة لم تكن متكافئة، خاصة وأنّ عدد الثّوار الأمريكيين كان محدودًا جدًّا، إلّا أنّ في النّهاية تمّ التّوقيع على معاهدة باريس عام 1783 والّتي بموجبها تمّ الإعلان عن تحرّر العالم الجديد، وبذلك أُعتبرت الثّورة الأمريكيّة رمزًا يحتذى به، لأنّها اِستطاعت أنّ تغيّر موازين القوى وأصبحت فيما بعد موطن الحرّيّات والدّفاع عن حقوق الإنسان.[4]

[1] رأفت غنيمي، أمريكا والعالم في التّاريخ الحديث والمعاصر، عين للدّراسات والبحوث الإنسانيّة والإجتماعيّة، (د ب)، 2006، ص31.
[2] إمام عبد الفتّاح إمام، الأخلاق والسّاسة،ص335،334.
[3] **محمد عبدالرحمن محمد**، أهميّة فكر لوك في تاريخ الفكر الفلسفي، مرجع سابق.
[4] عبد الوهّاب الكيالي، موسوعة السّياسة، مرجع سابق، ص175.

- وثيقة إعلان الإِستقلال:

بعد الإِنتصار الّذي حقّقه شعب الولايات المتّحدة الأمريكيّة في التّخلص من الإِستعمار البريطاني، عمد إلى توثيق المبادئ التي تقوم عليها الدّولة، مشكّلين بذلك "وثيقة إعلان الإِستقلال"، التي كان كانت مستقات من فلسفة لوك السّياسيّة العظيمة، «وبدأ إعلان الإِستقلال بصوته المدوّي، وصياغته الّتي لا تنسى، بعرضٍ لمبادئ جون لوك أوّل من أكّدها في عصر الثّورة المجيدة في إنجلترا.»[1] لقد كانت الفلسفة والآراء السّياسيّة التي طرحها لوك بالغة الأهميّة، وهذا راجع لمصدرها المتمثّل في حقوق الإنسان والّتي «تتبلور في حق الحياة، والحرّيّة، والملكيّة. وبالتّمسك بهذه الحقوق لا في حالة المجتمع الطّبيعي الأوّل، ولكن في حالة المجتمع المتحضّر أيضًا.»[2] ولقد جاء في وثيقة إعلان الإِستقلال الّتي حرّرها توماس جيفرسون ما يلي:

«إنّنا نؤمن بأنّ هذه الحقائق واضحة بذاتها، وهي أنّ النّاس جميعًا قد ولدوا سواسيّة، وإنّ خالقهم قد حباهم بحقوق معيّنة هي جزء لا يتجزّأ من طبائعهم، منها حقّ الحياة، وحقّ الحرّية، والبحث عن السّعادة، وإنّه ليظفر النّاس بهذه الحقوق، أقيمت فيهم الحكومات، تستمدّ سلطاتها العادلة من رضى المحكومين، وأنّ الحكومة كائنة ما كانت صورتها، إذ ما إِنقلبت هادمة لتلك الغايات فمن حقّ الشّعب أن يغيّرها أو يزيلها، وأن يقيم حكومة جديدة تضع أساسها على مبادئ وتنظم سلطاتها على صورة، بحيث تبدو للنّاس تلك المبادئ وهذه الصّورة... مؤديتان إلى أمنهم وسعادتهم»[3]، لقد إختصر جيفرسون وجميع من شارك في صياغة هذا البيان، ما جاء به لوك من فكر فلسفيّ سياسيّ فكانت مبادئ ومرتكزات الدّولة الأمريكيّة المستقلّة الّتي أصبحت الآن محور العالم ومركزه في جميع المجالات، ما يعني أنّه فكرٌ يحاكي مجريات الواقع البشريّ البعيد عن تلك الآراء الأفلاطونيّة والطّوباويّة والمثاليّة الّتي يعجز عن تطبيقها الإنسان في هذا العالم اللامثالي.

[1] أندرزيجي كروز وليود سبنسر، عصر التّنوير، مرجع سابق، ص158.
[2] علي عبد المعطى، تيّارات فلسفيّة حديثة، مرجع سابق، ص137.
[3] إمام عبد الفتّاح إمام، الأخلاق والسّياسة، مرجع سابق، ص334،333.

2) الثّورة الفرنسيّة:

تعدّ الثّورة الفرنسيّة (1789) من بين الثّورات الّتي «أنهت حكم ملكيّة تستند إلى الحقّ الإلهي، وإلى تأييد أرستقراطيّة إقطاعيّة، وأقامت سلطة بورجوازيّة تتمتّع بقدرٍ من التّأييد من الطّبقة الفلاحيّة، وهي، لهذا تمثّل نمط الثورة البورجوازيّة ضدّ أرستقراطيّة محلّيّة، لا خارجيّة إمبرياليّة كما هو الحال في الثورة الأمريكيّة.»[1]، لقد أُعتبرت الثّورة الفرنسيّة حدث مهمّ غيّر مجرى الأحداث والتّاريخ، داخل فرنسا وخارجها.

ولقد تعدّدت أسباب قيام الثورة الفرنسيّة بسبب الأوضاع التي كانت تسودها، فإذا نظرنا إلى الجانب الإقتصادي والإِجتماعي وجدناه جدّ متدهور، فالدّيون أثقلت كاهل خزينة الدّولة والفقر قد إِنتشر ونال من الطّبقة المحرومة نظرًا لدخول فرنسا في حروب مع عدّة دول، كانت آخرها مساندتها للثّورة الأمريكيّة ضد الإِستعمار البريطاني، أضِف إلى تلك الأوضاع ذلك الإِستبداد الكنسيّ والإِضطهاد الدّينيّ من طرف باباوات ورجال الكنيسة، أما سياسيًّا فقد كانت السّلطة الحاكمة هي الأخرى تمتاز بالطّغيان والإِستبداد فكان هذا من أكثر العوامل الدّافعة لقيام هاته الثّورة، وفي ظلّ هذه الأوضاع المتأزّمة، ظهر مفكرون وفلاسفة تنويريّون أرادوا تغيير هذه الظّروف الكارثيّة من أمثال فولتير ومونتيسكيو Montesquieu (1689-1755) بدعوتهم إلى التّسامح الدّيني والحرّيّة والمساواة وإلى حقوق الإنسان بشكل عام، وبالفعل فقد نجحوا في إيصال فلسفتهم ونظريّاتهم السّياسيّة المستمدّة من ليبراليّة لوك، فبعد أن تجسّدت أفكاره في أمريكا وثورتها التّحرّريّة، نلاحظ أنّها قد وجدت صدى في فرنسا، وذلك حين[2] «إِنتقلت كتابته وأفكاره إلى مفجّري الثّورة الفرنسيّة من السّاسة والمفكّرين... خصوصًا تلك الأفكار الّتي دعّمت الحرّيّة الفرديّة، وسيادة الشّعب على مقدراته، وحقّ الثّورة ضدّ أيّ ظلم يعوق ملكيّة الأفراد وحرّيّاتهم أو حياتهم.»[3]

[1] عبد الوهّاب الكيالي، موسوعة السّياسة، مرجع سابق، ص872.
[2] علي عبد المعطى، تيّارات فلسفيّة حديثة، مرجع سابق، ص138.
[3] علي عبد المعطى، تيّارات فلسفيّة حديثة، مرجع سابق، ص138.

لقد كانت فرنسا الخاضعة للحكم الملكي المستبدّ، والمنغلقة على الأفكار الدّيكارتيّة المطلقة بأمس الحاجة لمثل ذلك التّنظير الفلسفيّ الذي قامت عليه الثّورة الإنجليزيّة والّتي لُقّبت بالثّورة المجيدة، نظرًا لما حقّقته من اِنتصار على الظّلم والاِستبداد الكنسيّ و كذا السّلطة الحاكمة. ولوك هو أحد أولئك المنظّرين للثّورة البريطانيّة، أضف إلى ذلك أنّه الفيلسوف الذي شكّلت آراءه السّياسيّة قاعدة أولى للفلاسفة الفرنسيّين الذين مهّدت أفكارهم للثورة الفرنسيّة.[1]

«وبفضل إقامة فولتير في إنجلترا فيما بين عامي 1726 و1729، وإقامة مونتيسكيو بها عشر سنوات بعد ذلك، أصبحت فلسفة لوك أساس حركة التّنوير الفرنسيّة، وأصبح الإعجاب بالحكم الإنجليزي الفكرة الأساسيّة للبيراليّة الفرنسيّة.»[2]، عارض مونتيسكيو الحكم المطلق ورأى بأنّه نظام تنعدم فيه الحرّيّة، لهذا «كان مونتيسكيو يلقّن رجال الدّولة فى الثّورة الفرنسيّة التّدابير الّتي يجب اِتّخاذها لضمان الحرّيّة للمواطنين»[3]، أما عن فولتير فقد «كان عصره من أعظم العصور الأوروبيّة، وكان هو جوهر عصره وروحه. لقد قال فيكتور هوجو، أنّ اِسم فولتير يصف القرن الثامن عشر كلّه. لقد كان لإيطاليا نهضة، ولألمانيا إصلاح، ولكن فرنسا كان لها فولتير. فقد كان لبلاده بمثابة النّهضة والإصلاح، وكان نصف ثورتها... لقد وهبه الله ثلاثًا وثمانين سنة من العمر، ليتمكّن من تحليل عصره الفاسد... قال نيتشه، لا بدّ للأسود السّاخرة من أن تجيء، وجاء فولتير فأذلّ الطّغاة بسخريته وكان له فضل كبير هو وجان جاك روسو في الاِنتقال السّياسيّ والاِقتصاديّ الكبير من حكم الأرستقراطي الإقطاعي إلى حكم الطّبقة المتوسّطة.»[4]، إذن لقد كانت الكتب والأعمال الفكريّة لهؤلاء الفلاسفة خلاصةً لآراء لوك السّياسيّة الواقعيّة، التي أثّرت مباشرةً في المجتمع الفرنسي بجميع فئاته وطبقاته، مشجّعين بذلك على التّغيير عن طريق القيام بثورةٍ من أجل أن العيش الكريم من خلال إستعادتهم لجميع حقوقهم، وبهذا اِندلعت الثورة

[1] جورج سباين، تطوّر الفكر السّياسيّ، مرجع سابق، ص19.

[2] المرجع نفسه، ص20.

[3] عوض بالقاسم علي يونس، دور فلاسفة التّنوير في قيام الثّورة الفرنسيّة، تصدرها قسم الفلسفة، كلّية الآداب، جامعة عين شمس، ع 17، (د ب)، 2016، ص06.

[4] ول ديورانت، قصّة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي حياة وآراء أعاظم رجال الفلسفة في العالم، تر: فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، ط 6، بيروت، 1761، ص250.

الفرنسيّة، ثورة حقوق الإنسان فكانت البداية بسقوط سجن الباستيل «في 14 يوليو 1789... بعد أن هاجمته جموع من الغوغاء الغاضبة، وانتشرت في كلّ صقع فكرة واحد إهتزّت لها الأفئدة طربًا هي أنّ الشّعب صاحب السّيادة، ومصدر كلّ سلطة، وبدأ النّظام الملكي الّذي حكم فرنسا حكمًا مطلقًا قرونًا طويلةً يترنّح. ومسّت الحاجة إلى وضع دستورٍ جديد للبلاد، وقد صدر بالفعل عام 1791، وتضمّن في إفتتاحيّته إعلان حقوق الإنسان والمواطن... الّذي أكّد الحقوق الأساسيّة للإنسان كالحرّيّة والعدل والمساواة، والتّأمينات الإجتماعيّة على إختلاف أنواعها.»[1]، إلّا أنّ هذا الدّستور لم يكن مقنعًا لدرجة أنّ الأوضاع الفرنسيّة لم تهدأ، «فوُضع دستورٌ جديد في 10 يونيو 1793 وتمّت الموافقة عليه يوم 24 من الشّهر ذاته، ثمّ عُرض للإستفتاء الشّعبيّ فوافق عليه الشّعب بأغلبيّة كاسحة في 9 أغسطس 1793 وهي أوّل مرّة في تاريخ فرنسا يُعرض الدّستور على إستفتاءٍ شعبيّ... يقرّ إعلان حقوق الإنسان ما يلي:[2]

1- غاية كلّ مجتمعٍ تحقيق السّعادة المشتركة للأعضاء، ووظيفة الحكومة أن تضمن التّمتّع بحقوقه الطّبيعيّة غير القابلة للسّقوط.

2- هذه الحقوق هي المساواة أمام القانون. فمن حقّ كلّ مواطنٍ أن يشغل الوظائف العامّة.

3- القانون هو التّعبير الحرّ الرّسميّ عن الإرادة العامّة.

4- الحرّيّة هي القدرة على فعل مالا يضرّ بحقوق الغير، وهي تضمن حرّيّة التّعبير عن الفكر أو الرأي إمّا عن طريق الصّحافة أو غيرها. وكذلك حرّيّة الإجتماع وحرّيّة العقيدة.

5- إنسانيّة الإنسان غير قابلة للمساس بها فلا يعترف القانون أبدًا بأن يعمل أحد خادمًا لإنسان آخر.

6- عندما تنتهك الحكومة حقوق الشّعب تصبح المقاومة هي أقدس الحقوق وإلزام الواجبات بالنّسبة للشّعب كلّه ولكلّ فردٍ فيه.»

[1] إمام عبد الفتّاح إمام، الأخلاق والسّياسة، مرجع سابق، ص354.
[2] المرجع نفسه، ص354،355.

لقد كان فلاسفة التّنوير الفرنسيّين جسرًا لفلسفة لوك الّتي كيّفوها وبيئتهم الفرنسيّة وأوضاعهم السّياسّة والإِجتماعيّة وغيرها، فأحدثوا بواسطتها ثورةً بِاسم حقوق الإنسان الّتي كانت سببًا في التّغيير الجذريّ لتلك الأوضاع المتدنيّة.

من خلال ما قمنا بعرضه في هذا الفصل، نخلص إلى أنّ جون لوك قدّم فلسفةً سياسيّةً متميّزةً جوهرها يكمن في فضيلة التّسامح، الّتي أفضت إلى نظريّة سياسيّة لبيراليّة علمانيّة كانت مصدر إلهامٍ للعديد من الفلاسفة من أمثال فولتير وجيفرسون، الذين تكلّما عن الحرّيّة والمساواة والعدل وجملة الحقوق الإنسانيّة، وكذا عن التّسامح الدّينيّ الذي هو جوهر الإستقرار والأمن والرّقيّ الحضاريّ، وعامل أساسيّ يكفل تحقيق جميع جوانب الحرّيّة الّتي بدورها تضمن إنسانيّة الإنسان، فإذا حُرم الفرد من حقوقه وبالتّحديد من حرّيّاته، فقد جزءًا كبيرًا من إنسانيّته.

ولم يتوقف تأثير فلسفة "لوك" السّياسيّة على المستوى التّنظير وحسب، بل تجاوزته لتصبح نظريّةً مطبّقةً على أرض الواقع، فالولايات المتّحدة الأمريكيّة وفرنسا اللّتان تعتبران الآن بلدانًا للحرّيّة والحقوق الإنسانيّة، قد كانتا بالأمس تعيشان الإِضطهاد السّياسيّ والإِستبداد الدّينيّ والحروب الطّائفيّة. ولا يمكن إنكار فضل لوك الذي كان مصدر إلهامٍ للفلاسفة الذين كانوا السّبب في النهضة والتّوعيّة والتّنوير الّتي أدت إلى ثورات التّحرّر، وقد أُتُّخذت أفكار لوك السّياسيّة بعد نجاح هاته الثّورات قوانين ودساتير لتلك البلدان.

خاتمة

خاتمة

لقد اِستطاع "جون لوك" حين إتّخذ من محيطه وظروفه الّتي عايشها أن يقدّم فلسفةً سياسيّةً واقعيّةً، نظرًا لما أحدثته نظريّاته من تغييرٍ كبيرٍ ليس فقط في بلده إنجلترا، بل إنّ نجاحها وتجسيدها على أرض الواقع قد بلغ العالم الجديد والأراضي الفرنسيّة محدثةً بذلك ثورةً بِاسم الحرّيّة وحقوق الإنسان والّتي نادى بها لوك، كيف لا وهو الذي نشأ وترعرع في أسرة وبيئةٍ مكافحة من أجل الحرّيّة.

والدّارس للجانب السّياسيّ من فلسفة لوك، حتمًا سيلاحظ ذلك التّجانس بين مذهبه في التّسامح الذي أورده في مؤلّفه "رسالة في التّسامح" و بين آراءه السّياسيّة التي ضمّنها في "مقالتان في الحكم المدنيّ"، فكان العملان مكملين لبعضهما معلنًا بذلك قيام دولةٍ ليبراليّة، القوانين فيها نابعة من إرادة الأغلبيّة.

إنّ ليبراليّة لوك قائمة على مجتمعٍ علمانيٍّ، حيث عمد إلى نقد فكرة حقّ الملوك المطلق في الحكم التي رآها أمرًا غير عادلٍ، والملاحظ هنا أنه اِنطلق في نقده هذا من فلسفته في المعرفة، حيث أقرّ بأنّه لا وجود لشيءٍ مطلق، وبهذا فنّد تلك الفكرة الّتي غزت المجتمعات الأوروبيّة لقرون والّتي كانت سببًا في اِنتهاك حقوق الإنسان. قام لوك بعد ذلك بالتّنظير لدولة علمانيّة، في تصوّرنا أنّه تنظير يتوافق والدّيانة المسيحيّة الحقّة وحتى مع الدّين الإسلاميّ، فكلا الدّيانتيّن دعت إلى حرّية المعتقد وإلى نبذ الحروب والقتل وإرغام الغير ومحاسبتهم، فنحن غير مكلّفين بمهمة هي في الأصل من أمر الخالق لا الإنسان، وهذا بالتّحديد ما رمى إليه لوك حين وصف المسيحيّة الحقّة "بالمعقولة"، واِستنادًا لذلك أسّس مجتمعًا علمانيًّا سلطته الحاكمة مقيّدة بقوانين تحفظ حقوق الرّعيّة، ومنفصلة عن الكنيسة لحفظ تلك التّعدّديّة الدّينيّة وإرساء مذهب التّسامح لتجنّب تلك الحروب الطائفيّة.

لقد كانت آراء جون لوك في التّسامح الدّينيّ والعلمانيّة واللّيبراليّة، محلّ اِهتمام وإعجابٍ من العديد من المفكّرين والسّاسة، «يقول المنظّر السّياسيّ هارولد لاسكي (1893–1950م) رئيس

حزب العمّال البريطانيّ بين(45-1946م) عن أهميّة لوك في تسويغ تلك التّحوّلات نظريّا لجيله: «لقد أمدّهم بالتّبرير. لقد أعطاهم نوعًا من النّظام تسمح حدوده بالحرّيّات الّتي هم في حاجة إليها بالضّبط. لقد أعطاهم نظريّة للتّسامح تمكّنهم من اِستبعاد مَن يريدون اِستبعاده بالضّبط من التّمتّع بفوائده.» »[1]

رغم أنّ لوك جاء بفكرة التّسامح الإنسانيّة والّتي ميّزت فكره السّياسيّ، إلّا أنّ التّسامح الذي أتى به لم يكن شاملًا، بل كانت لديه حدود، حيث إستثنى الملاحدة منه، يقول: «وأخيرًا لا يمكن التّسامح على الإطلاق مع الّذين ينكرون وجود الله.»[2]، مبرّرًا إستثناءه هذا بأنّ الإلحاد والتّنكّر لوجود الله من أسباب تفكّك المجتمع، لكن «وعلى الرّغم من إتقان لوك في عرضه لأسباب التّسامح، وتأكيده على الحرّيّة الشّخصيّة، وتمييزه لسلطة الحكومة عن السّلطة الدّينيّة، بل وفصلهما إلّا أنّنا نجده يُخلّ بمبدأ التّسامح العام حين يستثني منه عددًا من الفئات مثل الملحدين.»[3]

إنّ مثل هذه الهفوة الّتي وقع فيها لوك لا يمكن أنّ تلغي ذلك الإبداع الفلسفيّ والتّنظير السّياسيّ، لاسيما وأنّه كان قاعدة للعديد من الفلاسفة، وإنجيلًا للثورات التّحرّريّة آنذاك.

وبعد هذا التّقييم الموجز للفلسفة السّياسيّة لدى جون لوك، يمكننا أن نستنتج في ختام هذا البحث أنّ التّسامح، قيمة خلقيّة تحمل جميع معاني التّساهل والعفو الّتي تفضي بنا إلى تقبّل الآخر بإختلاف أفكاره ومعتقداته وتوجّهاته.

وقبل أن يكون التّسامح إشكاليّة متناولة في مباحث الفلسفة، نجد بأنّه كان خلق عمليّ جسّدته المجتمعات البدائيّة في حياتها آنذاك، خلال ممراسة الفرد البدائيّ للتّجارة والمعاملات

[1] أحمد عبد الله الصّعيدي، ضرورة وحدود التّسامح في محاولة في التّسامح الدّينيّ لجون لوك، مجلّة واسط للعلوم الإنسانيّة، كلّيّة الآداب، جامعة صنعاء، ع11، (د ب)، (د س)، ص226.
[2] جون لوك، رسالة في التّسامح، مصدر سابق، ص57.
[3] راوية عبد المنعم عبّاس، جون لوك إمام الفلسفة التّجريبيّة، ص119.

الإقتصاديّة بين القبائل، فكانت تعتبر هاته المعاملات عربون محبّة وتسامح لفضّ النّزاعات ومدّ جسور التّعايش والسّلام.

ومع تشييد الإنسان للحضارات، أخذ ينظّر لمبادئ وأخلاق تنظّم سير مجتمعه، فكان التّسامح أبرز هذه الأخلاق والقيم الّتي دعا إليها حكماء الحضارات الشّرقيّة من أجل بلوغ الخلاص كما جاء في كتبهم المقدّسة لكل من الحضارة الصّينيّة والهنديّة، أمّا عن الحضارة المصريّة الّتي على الرّغم من أنّها كانت تمتاز بمجتمعها المتنوّع ثقافيًّا ودينيًّا وعرقيًّا...الخ، إلّا أنّ الحرّيّات فيها كانت محفوظةً والتّسامح بين الأفراد لم يكن غائبًا البتّة.

وبِانتقالنا للحضارات الغربيّة بالتّحديد إلى الحضارة اليونانيّة، الّتي كان الفكر والفلسفة أحد أسباب اِزدهارها. ويعدّ السّفسطائيّون أهمّ الفلاسفة اليونانيّين، حيث اِرتكزت فلسفتهم على الإنسان، فكانوا السّباقين بدعوتهم لحقوق وحرّيّات الأفراد وتحقيق العدل عن طريق المساواة بينهم، مخالفين بذلك نظام الطّبقيّة السائد في المجتمع اليونانيّ، متّخذين من "الإنسان مقياس كلّ شيء" شعارًا لهم، وبطرحهم هذا أصبحوا قاعدةً أولى ومرجعيّةً أساسيّة للعديد من الفلاسفة فيما بعد، الّذين دافعوا عن حقوق الإنسان الّتي شملت العدل والمساواة والحرّيّة بجميع جوانبها، وغيرها من الحقوق. أمّا عن الحضارة الرّومانيّة، فقد عُرفت بتسلّطها وبقوّة مجالها العسكريّ والإِضطهاد والتّعصّب الدّينيّ، إلّا أنّها في فترة حكم الإمبراطور "قسطنطين" عَرفت نوعًا من الأمن والسّلام بين السّلطة والرّعايا، وذلك راجعٌ لسياسة التّسامح الدّيني الّتي تبنّاها هذا الإمبراطور.

أمّا عن الحضارة الإسلاميّة، فالإِسم يوحي بالمضمون، ولقد اِستمدّت هذه الحضارة أُسسها من الدّين الإسلامي الّذي ركّز على الأخلاق بِاعتبارها ظوابط للمجتمع، ولعلّ التّسامح من بين هاته الأخلاق الّتي دعت إليها في القرآن الكريم وكذا في السّنّة النبويّة الشريفة فعلًا وقولًا، فكان التّسامح متجسّدًا فعلًا حين جعلت من الحرّيّة الدّينيّة واِحترام العقائد الأخرى أمرًا مقدّسًا لا يمكن المساس به، وهذا ما قام به المسلمون مع أهل الذّمّة.

وفي العصور الوسطى لم يكن للتسامح كقيمة خلقيّة أو مبدأ للتّعامل أيّ وجود، حيث عرف الإنسان الأوروبّي آنذاك، إنحطاطًا وإضطهادًا لإنسانيّته من طرف الكنيسة ورجالاتها، الّذين تجاوزت سلطتهم المجتمع الكنسيّ لتصل للسّلطة الحاكمة، وبهذا وُصفت تلك العصور بالمظلمة.

ومع نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث، بدا الإنسان أكثر وعيًا بحقوقه، ولعلّ تلك الظّروف المتأزّمة والحروب الدّمويّة الّتي كان سببها الصّراعات الدّينيّة، تعدّ عاملًا رئيسيًّا في ميلاد مفكّرين وفلاسفة حاولوا الخروج من هذه الأوضاع، فكان التّسامح الدّينيّ فكرتهم الأساسيّة الّتي قادت مشروعهم من أجل الإصلاح والتّغيير، وبهذا شهد مصطلح التّسامح تأسيسًا فلسفيًّا في هذا العصر مع العديد من الفلاسفة أبرزهم "جون لوك" و"بيير بايل."

ويعدّ جون لوك الفيلسوف الإنجليزي من الفلاسفة الّذين ساهموا في إثراء الإنتاج الفكري والفلسفي في العصر الحديث، ولقد ساهمت الفلسفات السابقة له كمرجعيّة إستند إليها وتأثّر بها في بناء آرائه في شتّى المجالات، ويعدّ السّفسطائيّون وأرسطو من الحقبة اليونانيّة وبيكون وديكارت وهوبز من الفترة الحديثة أبرز مرجعيّاته الّتي إنطلق منها ليدعّم آراءه، مقدّمًا بذلك فلسفةً خاصّةً به.

كما أنّ للظّروف الإجتماعيّة والسّياسيّة الّتي شهدها لوك نصيب في تشكيل فكره لاسيّما السّياسيّ منه، فأسرته ومحيطه الإجتماعيّ ككل أكسبه تنشئةً أثنى عليها هو شخصيًّا في الجانب التّربوي من فلسفته، فقد ترعرع داخل أسرة تنتمي لطائفة دينيّة متسامحة متساهلة بالنسبة للطّوائف الأخرى الّتي عرفتها إنجلترا، وعمل أبوه على تربيّته على حب الحرّيّة والعدل ومساعدة الآخرين.

بالإضافة إلى الظّروف السّياسيّة الّتي ميّزت بلده، حيث كان المجتمع الإنجليزي ينقسم إلى طائفتين دينيّتين تمثلتا في الكاثوليكيّة وهي العقيدة الّتي تتّبعها السّلطة الحاكمة، والبروتيستانتيّة الّتي كانت تَوَجُّهَ أغلبيّة الرّعيّة من بينهم جون لوك، هذا الإنقسام أدّى إلى صراع طائفيّ دمويّ بين السّلطة والشّعب بسبب إنحياز السّلطة الحاكمة المطلقة للكنيسة الكاثوليكيّة، وتدخّل هذه الأخيرة في شؤون الحكم وإضطهادهما للأفراد، وبعد أن غادر لوك إنجلترا مضطرًّا إلى هولندا،

لاحظ ذلك السّلام الذي كان يسودها رغم التّعدّديّة الدّينيّة. كانت تلك الأسباب الإجتماعيّة والسّياسيّة كافيّة لدفع لوك ليتبنى فكرة التّسامح كحلٍّ لهذا الوضع المتأزّم.

قدّم جون لوك فكرته في التّسامح ضِمن نظريّته السّياسيّة، منتجًا بذلك نظام حكمٍ مقيّد ومجتمعٍ لبيراليٍّ يتمتّع بحقوقه المدنيّة في إطار القوانين الوضعيّة، ولقد إرتبط التّسامح عنده بالحقوق الطّبيعيّة للإنسان، من حق في الحياة والحرّيّة والمساواة وغيرها إرتباطًا وثيقًا، وإعتبر هاته الحقوق أمرًا مقدّسًا للإنسان ما دامت الطّبيعة هي الّتي منحته إيّها في الحالة الأولى، حيث وصفها لوك بحالة السلم والأمن إذ ما إلتزم الأفراد بتلك القوانين الطّبيعيّة، وحرص لوك على إستمراريّة وحفظ هذه الحقوق حتّى بعد إقامة العقد الإجتماعي بين الحاكم والشّعب، الذي ينتقل بموجبه الأفراد من الحالة الأولى إلى الحالة المدنيّة، وذلك عن طريق تنازلهم عن جزءٍ من حقوقهم لضمان حمايتهم وحرّيّتهم والحفاظ على ممتلكاتهم.

وقبل أن يضع فيلسوفنا نظريّته هذه، ألّف رسالته في التّسامح الّتي أُعتبرت صرخةً داعيّةً للحرّيّةِ، بالتّحديد حرّيّة المعتقد، حيث رأى لوك أنّ سبب تلك الصّراعات اللّامتناهيّة والإضطهاد والإستبداد، هو ذلك التّعصّب العقائديّ والحِمية الدّينيّة، وكذا الخلط بين مهام السّلطة الحاكمة والسّلطة الكنسيّة، لهذا أوجب الفصل بينهما من خلال إلتزام كلّ سلطة بوظيفتها، وقد حدّد وظيفة السّلطة المدنيّة وحصرها في الحفاظ على حقوق الأفراد دون تدّخلها في شؤونهم الدّينيّة والعقائديّة، بل عليها أن تحرص على الحفاظ على هذا الحقّ الأساسي الذي به يتحقّق أمن وسلام الدّولة، فليس من حقّها أن تفرض على رعاياها أيّة عقيدة أو أن تنحاز لكنيسة دون أخرى فتنتهك حقوق الشّعب، وللفرد الحقّ في ممارسة طقوس عقيدته ما دام أنّها لا تجلب الضّرر لحقوق الآخرين. كما أنّه حصر وظيفة السّلطة الدّينيّة في إرشاد النّاس وهدايتهم بالّتي هي أحسن أي؛ دون إستخدام العنف أو القوّة لردعهم أو حرمانهم من حقوقهم المدنيّة بإسم الدّين، فلا أحد وصيٌّ على غيره في مسألة خلاص النّفوس، والكلّ له حرّيّة أن يؤمن بربه بالطّريقة الّتي يتقبّلها عقله، وفي أن يتغيّر من كنيسة إلى أخرى أو من ملّة إلى أخرى، كما كان له الإرادة في البداية

في الإنتماء. بهذا قدّم لنا جون لوك إنطلاقًا من مفهومه عن التّسامح، مجتمعًا علمانيًّا ذو سلطة محدودة غير مطلقة وليبراليّة مستمدّة من رضى الأغلبيّة.

إنّ هذا التّزاوج بين فكرة التّسامح لدى لوك ونظريّته السّياسيّة، أنتج لنا مصطلحات جديدة في ذلك العصر كالعلمانيّة واللّبيراليّة، وكذا نظريّة سياسيّة ألهمت العديد من الفلاسفة الذين أتوا من بعده. لقد تجاوز تأثير فلسفة لوك السّياسيّة بلده، ليصل إلى العديد من الفلاسفة الأوروبّيّين لاسيّما الفرنسيّين منهم، من أمثال فيلسوف التّنوير فولتير، وكذا الفيلسوف والعالم والسّياسيّ الأمريكيّ توماس جيفرسون، لقد أخذوا منه العديد من الأفكار والآراء، خاصّة تلك الّتي تتعلّق بحقوق الإنسان، والتّسامح الدّينيّ.

كما أنّ آراء لوك السّياسيّة لم تبقى حبيسة التّنظير والتّداول بين الفلاسفة فقط، بل نجدها متجسّدة في الواقع، وذلك حين اِتّخذها الأمريكيّون والفرنسيّون دستورًا لدولتهم الجديدة بعد قيامهم بالثّورة الّتي اِستمدّوا شرعيتها هي أيضًا من جون لوك والّتي اِعتبرها حقٌّ بيد الشعب حين يستبدّ الحكّام.

هذا عن تأثير لوك في العصور الحديثة، فماذا عن القرن الواحد والعشرين؟ وعن الأوصوليّات الدّينيّة والنّزاعات العقائديّة الّتي يشهدها عالمنا اليّوم خاصّة العربيّ والإسلاميّ؟ هل سيعاد النّظر في فلسفة لوك السّياسيّة وفي مذهبه في الحياة والتّسامح والعلمانيّة ؟ وهل ستتّخذ البشريّة مبدأه في اِحترام الآخر أسلوب عيشٍ لها أم لا؟

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

المصادر :

1) جون لوك، رسالة في التّسامح، تر: منى أبو سنّة، المجلس الأعلى للثّقافة، مصر، 1997.

2) جون لوك، في الحكم المدني، تر: ماجد فخري، اللّجنة الدّوليّة لترجمة الرّوائع، بيروت، 1959.

المراجع :

1) إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر، الإسكندريّة، 2001.

2) أحمد علي عجيبة، البابويّة وسيطرتها على الفكر الأوروبيّ في العصور الوسطى، مطابع الشّناوي، طنطا، 1991.

3) أحمد غانم حافظ، الإمبراطوريّة الرّومانيّة من النّشأة إلى الإِنهيار، دار المعرفة الجامعيّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الإسكندريّة، 2007.

4) إسماعيل زروخي، دراسات في الفلسفة السّياسيّة، دار الفجر للنّشر والتّوزيع، القاهرة، 2001.

5) السّيد محمد بدويّ، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الإِجتماع، دار المعرفة الجامعيّة، (د.ب)، 2000.

6) إمام عبد الفتّاح إمام، الأخلاق والسّياسة، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة، 2002.

7) أميرة حلمي مطر، الفلسفة السّياسيّة من أفلاطون إلى ماركس، دار المعارف، ط5، القاهرة، 1995.

8) أندرزيجي كروز وليود سبنسر، عصر التّنوير، تر: إمام عبد الفتّاح إمام، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة، 2005.

9) برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربيّة، تر: محمد فتحي الشّنطي، مطابع الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1977.

10) جان توشار، تاريخ الأفكار السّياسيّة من عصر النّهضة إلى عصر الأنوار، تر: ناجي الدراوشة، دار التّكوين للتّأليف والتّرجمة والنّشر، ج2، سوريا، 2010.

11) جورج سباين، تطوّر الفكر السّياسيّ، تر: علي إبراهيم السيّد، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ج4، (د.ب)، (د.ت).

12) جون دن، جون لوك مقدّمة قصيرة جدّا، تر: فايقة جرجس حنا، مؤسسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، مصر، 2016.

13) راوية عبد المنعم عبّاس، جون لوك إمام الفلسفة التّجريبيّة، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، 1996.

14) رأفت غنيمي، أمريكا والعالم في التّاريخ الحديث والمعاصر، عين للدّراسات والبحوث الإنسانيّة والإجتماعيّة، (د.ب)، 2006.

15) ستفن ديلو، التّفيكر السّياسي والنّظريّة السّياسيّة والمجتمع المدني، تر: ربيع وهبة، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة، 2003.

16) سلامة موسى، حرّيّة الفكر وأبطالها في التّاريخ، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، القاهرة، 2014.

17) شوقي أبو خليل، التّسامح في الإسلام، دار الفكر المعاصر، لبنان، (د.ت).

18) شوقي عطاالله الجمل وعبد الله عبد الرّزاق، تاريخ أوروبا من النّهضة حتّى الحرب الباردة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2000.

19) صالح مصباح، فلسفة الحداثة اللّيبيراليّة الكلاسيكيّة من هوبز إلى كانط، جداول للنّشر والتّوزيع، بيروت،2011.

20)عبد الرّضا حسين الطّعان وعامر حسن فياض وعلي عبّاس مراد، مدخل إلى الفكر السّياسيّ الغربيّ الحديث والمعاصر، وزارة التّعليم العالي والبحث العلميّ، جامعة بغداد، (د.ب)، 2008.

21) عبد العزيز بن عثمان التّويجري، صراع الحضارات في المفهوم الإسلاميّ، منشورات المنظّمة الإسلاميّة للتّربيّة والعلوم والثّقافة إسيسكو، الرّباط، 2002.

22) عثمان نويّة، المفكّرون من سقراط إلى سارتر، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، 1970.

23) علي عبد المعطى، تيّارات فلسفيّة حديثة، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، 1984.

24) فاروق عبد المعطي، توماس جيفرسون الفيلسوف العالم، دار الكتب العلميّة، لبنان، 1993.

25) فاروق عبد المعطي، جون لوك من فلاسفة الإنجليز في العصر الحديث، دار الكتب العلميّة، لبنان، 1993.

26) فردريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، تر: محمود سيّد أحمد، المجلس الأعلى للثّقافة، م5، القاهرة، 2003.

27) كامل محمد عويضة، أوغسطين فيلسوف العصور الوسطى، دار الكتب العلميّة، لبنان، 1993.

28) لبنى رياض عبد المجيد الرّفاعي ومحمّد حمزة حسين الدّليمي، تاريخ أوروبا في عصر النّهضة، دار إبن الأثير للطّباعة والنّشر، بغداد، 2014.

29) ول ديورانت، قصّة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي حياة وآراء أعاظم رجال الفلسفة في العالم، تر: فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، ط 6، بيروت، 1761.

30) لوتسو، الطريق إلى الفضيلة، ت: علاء الديب، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، (د.ب)، 1998.

31) محمد عبد الرحمن مرحبا، المرجع في تاريخ الأخلاق، جروس برس، لبنان، 1988.

32) محمد علي أبو ريّان، تاريخ الفكر الفلسفي ، دار المعرفة الجامعيّة، ج4، (د ب)، 1996.

33) محمّد خليل الخطيب، خطب الرّسول صلى الله عليه وسلم، دار الفضيلة للنّشر والتّوزيع والتّصدير، القاهرة، 1953.

34) محمد نصر مهنا، علوم السّياسة الأصول والنّظريّات، مؤسّسة شباب الجامعة، الإسكندريّة، 2009.

35) محمّد وقيع الله أحمد، مدخل إلى الفلسفة السّياسيّة، دار الفكر، دمشق،2010.

36) مسدوّة وهيبة، خطاب التّسامح في فكر الأنوار، مذكّرة شهادة الماجستير جامعة السّانية، وهران،2011.

37) مهدي محفوظ، اِتّجاهات الفكر السّياسيّ في العصر الحديث، مجد المؤسسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، ط2، لبنان، 2007.

38) موسى إبراهيم، الفكر السّياسي الحديث والمعاصر، دار المنهل اللّبناني، بيروت، 2011.

39) هاشم صالح، التّسامح والحرّيّة الدّينيّة في الفكر الأوروبيّ، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدّراسات والأبحاث ، الرّباط، (د.ت).

40) هاشم صالح، مدخل التّنوير الأوروبيّ، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، لبنان، 2005.

41) ويليم كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، تر: محمود سيّد أحمد، التّنوير للطّباعة والنّشر والتّوزيع، لبنان، 2010.

42) ياروسلاف تشارني، الدّيانة المصريّة القديمة، تر: أحمد قدري، دار الشّروق، القاهرة، 1996.

43) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف المصريّة، القاهرة، (د.ت).

44) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، مؤسسة هنداوي للتّعليم والثّقافة، مصر، 2012.

المجلّات :

1) أحمد عبد الله الصّعيدي، ضرورة وحدود التّسامح في محاولة في التّسامح الدّينيّ لجون لوك، مجلّة واسط للعلوم الإنسانيّة، كلّيّة الآداب، جامعة صنعاء، ع11، (د.ب)، (د.ت).

3) عارف عادل مرشد ،ملامح من الفكر السياسي عند فولتير، مجلة فيلادلفيا الثقافية ، فصلية تصدرها جامعة الزرقاء، ع 7، الأردن، 2010.

2) عوض بالقاسم علي يونس، دور فلاسفة التّنوير في قيام الثّورة الفرنسيّة، تصدرها قسم الفلسفة، كلّية الآداب، جامعة عين شمس، ع 17، (د.ب)، 2016.

3) كرستين عماد سامي داود، "التّسامح وعلمنة المجتمع عند جون لوك"، مجلة كلّيّة التّربيّة في العلوم الإنسانيّة والأدبيّة، وحدة النّشر العلمي لكليّة التّربيّة، جامعة عين شمس، م 23، مصر

4) **محمد عبدالرحمن محمد،** أهميّة فكر لوك في تاريخ الفكر الفلسفي، مجلّة أهل القرآن الإلكترونيّة، http://www.ahl-alquran.com/arabic/printpage، 2019 ماي 25، 00:40.

5) نجلاء عدنان حسين، توماس جيفرسون ودوره في السّياسة الأمريكيّة حتى عام 1826، مجلّة كلّيّة التّربيّة الأساسيّة، جامعة المستنصريّة، ع 99، (د.ب)، 2017.

المؤتمرات :

1) يوسف ذياب عوّاد، التّسامح مابين الدّين والسّياسة، المؤتمر الدّوليّ الثّامن: التّنوّع الثّقافيّ، جامعة القدس المفتوحة، طرابلس، 2015.

2) محمد فوزي محمد الشايب، السّمات المشتركة للمعبودات الحدوديّة في مصر القديمة، المؤتمر الدولي الأول لدراسات الشرق الأدنى القديم، المعهد العالي لحضارات الشرق الأدنى القديم، جامعة الزقازيق، 2010.

3) محمود مراد، المصادر السّفسطائيّة اليونانيّة لحقوق الإنسان، أبحاث المؤتمر الدّولي الثّاني لقسم الفلسفة (الفلسفة وحقوق الإنسان)، المجلس الأعلى للثقافة، 2010.

المعاجم والقواميس :

1) إبراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، القاهرة، 1983.

2) أبي الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقيّ المصريّ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، م2، (د.ت).

3) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللّبنانيّ، لبنان، ج1، 1982.

4) عبد المنعم الحنفي، المعجم الفلسفي، دار إبن زيدون للطّباعة والنّشر والتّوزيع، لبنان، 1992.

5) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، 1986.

6) مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، 2007.

الموسوعات :

1) أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، ط2، م1، بيروت، 2001.

2) عبد الرّحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر، ج1، بيروت، 1984.

3) عبد الوهّاب الكيالي، موسوعة السّياسة، دار الهدى للنّشر والتّوزيع، ج2، بيروت، (د.ت).

ملخص البحث

ملخّص البحث :

"جون لوك" فيلسوف له آراء ونظريات في السّياسة، جعل من فلسفته السّياسيّة نهضةً لحقوق الإنسان، الّتي اِعتبرها حقوقًا أساسيّة وجوهريّة ما دام أنّ الطّبيعة هي الّتي سنّتها، وتتمثّل هذه الحقوق في الحرّيّة، والحياة، والمساواة، والملكيّة. ولقد خصّ "لوك" فلسفته السّياسيّة بفضيلة كانت غائبة عن عصره ألا وهي فضيلة "التّسامح"، فمن خلالها فصل بين السّلطة الدّينيّة والسّلطة المدنيّة، وبيّن مهام وحدود كلّ منهما، فلا الأولى تتدخّل في وظيفة الثّانيّة فتتعدّى على الحقوق المدنيّة للفرد بإسم الدّين، ولا الثّانيّة تتدخّل في الأولى فتكون منحازةً لها أو وصيّةً على شؤونها فتضطهد رعيّتها، محيلا بذلك لفكرٍ سياسيٍّ علمانيّ داعٍ للّبيراليّة مناهضًا لحقوق الإنسان، فكان فكره مصدرًا ومرجعيّةً للعديد من الفلاسفة، بل تعدّى المجال النّظريّ ليطبّق في الواقع، واضعًا بذلك حدًّا لتلك الصّراعات وذلك الإستبداد الّذي ميّز عصره، والعصور الّتي من بعده.

الكلمات المفتاحيّة :

التسامح– التّسامح الدّيني– الليبراليّة– العلمانيّة– المساواة– الملكيّة– الحقوق الطّبيعيّة– الحقوق المدنيّة– قانوانين الطّبيعة– السّلطة المدنيّة– السّلطة الدّينيّة– حالة الطّبيعة– الحالة المدنيّة– العقد الإجتماعي– المجتمع المدني.

Abstract:

"John Lock" is a philosopher with views and theories in politics, he made the philosophy of politics a renaissance of human rights, which he considered fundamental and substantial as long as natural is the one who enacted it, these rights are freedom, life, equality, and property, Lock has singled out his political philosophy with a virtue that was absent from his time. namely the virtue of "tolerance", through which he separates between the religious authority and the authority, and he clarifies the functions and limits of each authority. The first does not intervene in the second's function, infringes on civil rights in the name of religion, and the second dose not intervene in the first, so it will be biased to it or will be a commandment on its affaires and persecute its flock, thus referring to a secular political though calling for liberalism against human rights, his idea was a source and reference for many philosophers, but beyond the realm to apply in reality, putting an end to those conflicts and the tyranny that characterized his era, and the times that followed.

Key words:

Tolerance– Religious tolerance– Liberalism– secularism– Equality– Property Natural rights– Civil authority– Religious authority– The state of nature– Civil status– Social contract– Civil society.